الفصل الثاني
مختارات شعرية
من العصر الجاهلى

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً تائية الشنفرى دراسة وتحليل ونقد

حياة الشنفرى :-

يكتنف حياة الشنفرى غموض شديد لا يتفق مع ذيوع اسمه بين شعراء الجاهلية بعامة ، والشعراء الصعاليك بصفة خاصة ، والقليل الذى جاءت به المراجع عنه ينحصر في : أنه من بنى الحرث بن ربيعة بن الأواس ابن الحُجْر بن الهِنْو بن الأزد بن الغوث ، أسَرَتْهُ بنو شبابة بن فَهْم ابن عمرو بن قيس عيلان في ظروف غامضة كل الغموض ، ولم يزل فيهم حتى أسَرَتْ بنو سلامان ابن مُفْرج (من الأزد) رجلاً من فهم ، أحد بنى شبابة ، فَفَدَتْه بنو شبابة بالشنفرى ، وعليه فقد نشأ في بنى سلامان لا تحسبه إلاّ واحدًا منهم ، حتى نازعته بنت الرجل الذى كان في حجره - وكان السُّلامى اتخذه ولدًا وأحسن إليه- فقال لها الشنفرى : اغسلى رأسى يا أُخيّة ، وهو لا يشك في أنها أخته ، فأنكرت أن يكون أخاها ولطمته ، فذهب مغاضبًا حتى أتى الذى أخذه من فَهْم قائلاً له : أصدقنى ممن أنا ؟ قال : أنت من الأَواس بن حُجْر ، فقال : أمَا إنى لن أدعكم حتى أقتل منكم مائة بما استعبدتمونى .

ويُروى أنه لزم دار فَهْم واستمرّ في الإغارة على الأزد حتى قتل منهم تسعة وتسعين ثم اجتمع له رهط منهم وتغلبوا عليه وقتلوه .

كما يروى أن سبب أسره ومقتله : أن الأزد قد قتلت الحارث بن السائب الفَهْمى ولم يعترف بقتله إلاّ " حزام بن جابر " ولما ترعرع الشنفرى أخذ يغير على الأزد مع فَهْم حتى قتل منهم كثيرين آخرهم حزام ابن جابر ، ثم يُقتل الشنفرى على يد أُسَيد بن جابر .

وفي جو الغموض الذى يحيط بحياته يتسع المجال للأساطير التى تروى حولها ، كمساحة الخطوة التى كان يخطوها في أثناء عَدْوه ، والتى وصلت إلى إحدى وثلاثين ذراعًا .

وكالذى يحكى من أنه بعد أن قتل وطُرح رأسُه ، مرَّ به رجل من الأزد فضرب جمجمته بقدمه فعُقِرَت قدمه منها فمات ، فتمت به المائة .

وغير ذلك كثير من الأخبار الخرافية التى تكثر حول المشهورين أو الأبطال الذين تجسّد مواقفهم مطلبًا أو تحوز إعجابًا تختلج به نفوس معاصريهم وأقوامهم .

ويروى ابن الأنبارى رواية تفيد أن السبب في عداء الشنفرى المستحكم للأزد : أن رجلاً منهم قتل أباه وهو صغير ، ولما رأت أمه تراخى عشيرته في الثأر له رحلت إلى فَهْم ، ولم تزل فيهم حتى كبر الشنفرى ، ووقع في نفس " تأبَّط شرًا " الفَهْمى موقعًا حسنًا فأُعجب به وعاونه هو وكثير من الفهميين على الثأر لأبيه - وهو نفسه يعترف أن قومه أضاعوا أباه ، ويدعم هذه الرواية ما أورده صاحب الأغانى في الرواية الثانية من أن الشنفرى ورد مِنىً وبها " حزام ابن جابر " فقيل له : هذا قاتل أبيك ، فشدَّ عليه فقتله ثم سبق الناس على رجليه فقال :

قتلنـــا حزامًـــا مُهْـــديا بِمُلَبِّـــدٍ ∴ ببطن منىً وسْطَ الحجيج المُصوِّتِ

ومهما يكن الغموض الذى يكتنف حياة الشنفرى ، فإنه دُفع دفعًا إلى كره قومه والنقمة عليهم ، بتأثير نشأته التى تجرع فيها مرارة الظلم والاستعباد والإهانة ثم بجواره للفهميين المتصعلكين ، وعلى رأسهم تأبط شرًا ، الذى تعهد بوادر التمرد عند الشنفرى ، فأنماها وزادها حدةً واتقادًا ، وكان من الطبيعى أن يكون الأزديون - لما لاقاه فيهم وعاناه بسببهم - من أوائل المصطلين بنار ثورته الناقمة ، بل لقد صاروا هدفًا ماثلاً لغزواته المستمرة هو ورجاله من فَهْم ، فكان يُغير على الأزد على رجليه فيمن تبعه من فَهْم ، وكان يُغير وحده أكثر من ذلك .

*****

تائية الشنفرى :-

عندما نقرأ تائية الشنفرى ، ندرك أن تجربته في هذه القصيدة ، قد احتلت المرأة فيها مكانًا بارزًا ، بحيث تظل هى المؤثر الأقوى دائمًا في تلك التجربة ، ولسنا نملك أمام غموض حياة الشنفرى أن نحدد العلاقة التى تربطه بها في الواقع : هل كانت محبوبة له حالت ظروف حياته دون الاقتران بها ؟ أم أنها حبيبة تزوجها ، وسكن إليها ردحًا من الزمن حتى اضطرت إلى الانفصال عنه ؟ ذلك شيء لا يمكن القطع به ، وكل ما يمكننا هو مجرد التخمين بأن " أميمة " كانت زوجًا له ؛ لأنه خلال تصويره لحياته معها لمس كثيرًا من جوانب حياتها البيتية الخاصة التى يتعذر معرفتها إلاّ لشخص لصيق بها .

وربما رجّح هذا الظن ما يرويه أبو الفرج الأصفهانى من أن بنى سلامان سَبَتْ الشنفرى وهو غلام ، فجعله الذى سباه في بَهْمة يرعاها مع ابنةٍ له ، فلما خلا بها الشنفرى أهوى ليقبلها ، فصكّت وجهه ، ثم أسرعت إلى أبيها فأخبرته ، فخرج إليه ليقتله ، فوجده وهو يقول :

ولو علمتْ تلك الفتاةُ مناسِبى ∴ ونسبتَها ظلَّت تقاصرُ دونَها
ألَيس أبى خير الأواس وغيرهَا ∴ وأمى ابنة الخيْرينَ لو تعلمينها

فلما سمع قوله قال له : لولا أنى أخاف أن يقتلنى بنو سلامان لأنكحتك ابنتى ، فقال له : علىَّ إن قتلوك أن أقتل بك مائة رجل منهم ، فأنكحه ابنته وخلّى سبيله ، فلما سار بها إلى قومه ، شدَّ بنو سلامان على الرجل فقتلوه ، فلما بلغ ذلك الشنفرى ، سَكت ولم يُظهر جزعًا عليه ، فأغضب ذلك زوجه ، وقالت له : لقد خِسْتَ بميثاق أبى عليك .

وعلى ذلك ، فربما كانت " أميمة " هى ابنة السُّلامى التى نعم الشنفرى بزواجها فترة من الزمن عاش خلالها حياة غريبة على حياته القلقة الثائرة المصبوغة بالدم .

وهذا بدوره يساعدنا على فهم تجربته الفنية وتصويره لها في هذه القصيدة التى تعتبر هى الأخرى غريبة بين نتاجه الشعرى الذى يدور حول صراعه المرير مع بنى سلامان وغاراته المستمرة عليهم ، وتربصه الدائم بهم ، وكذلك حول تصعلكه وفقره وهزاله وتشرده ونقمته على مجتمعه وحقده الأسود عليه .

على أية حال ، علينا الآن الإصغاء إلى صوت الشنفرى في هذه التجربة المتفردة بين نتاجه حيث تحتل فيها المرأة " أميمة " مساحة واسعة ، وحيث تجاوز الشنفرى واقعه وأخلص نفسه لواقع فني جديد ، تمثل خلاله تجربته الفنية ، وصَوّرها تصويرًا فنيًا تمثل في هذه القصيدة .

وليس من الضرورى أن يكون الشاعر قد مر بهذه التجربة في واقع حياته المعاشة ، لأن الذى يعنى دارس الأدب هو : نجاح الشاعر في تصوير تجربته ولا يعنيه كثيرًا أن يبحث عن معاناة الشاعر لها حقيقة في حياته أو عدم معاناته .

****

" نص القصيدة "

١. صدمة الفراق (١ : ٤)

يقول الشنفرى :-

١- أرى أمَّ عمــرٍو أجمعــتْ فاســتقلَّتِ

ومـــــا ودَّعـــــتْ جيرانَهـــــا إذْ تولَّـــــتِ

٢- وقــد ســبقتْنا أمُّ عمــرٍو بأمرهــا

وكانـــــت بأعنـــــاقِ المَطِـــــيِّ أظلَّـــــتِ

٣- بعينــيَّ مـا أمسـتْ فباتـتْ فأصـبحتْ

فقضَّـــــتْ أمـــــورًا فاســـــتقلَّتْ فوَلَّـــــتِ

٤- فواكِبــــدَا علـــــى أُميمـــــة بَعْـــــدَما

طمِعْـــتُ ، فهَبْهـــا نعمـــة العـــيشِ زَلَّـــتِ

---

(١) أجمعت : عزمتْ أمرها - استقلت : ارتحلتْ .

(٢) سبقتنا بأمرها : استبدت واستأثرت به - وكانت : أى ، فاجأتنا بالإبل حتى أظلتنا بها .

(٣) بعينيَّ : يأسف أن يرى رحيلها ، وليست لديه حيلة لمنعها .

(٤) زلَّت : ذهبتْ ، من قولهم : زلَّ عمره : ذهب .

opeikanal.com

الشرح:-

لعل أول ما يلفت النظر إلى هذه القصيدة التى تُمثّلُ الأنثى أبرز خيط في نسيجها الشعرى ، هو ذلك الرباط الخفى الدقيق بين مطلعها وختامها . هذا الرباط الممثل في شعور المرارة والأسى واليأس ، والذى اتخذ مظهرين مختلفين للنظرة الأولى وهما في الحقيقة يصدران عن نبع واحد هو المرأة وتجربته معها ، وفيما بين البدء والختام تظل (المرأة) هى الجزء البارز والمؤثر في القصيدة .

لقد بدأ الشاعر قصيدته في الأبيات السابقة بتصوير " صدمة الفراق " التى سببت له شعورًا عميقًا بالمرارة والأسى واليأس ، أدى إلى تجسيم إحساسه بالفقد تجسيمًا عن مظاهر الحياة من حوله . وهو بتلك البداية متأثر بآخر وأقوى الانفعالات المسيطرة على مشاعره حينما التاع لمشهد الرحيل الحزين لموكب " أميمة " الذى ابتلعته الصحراء الواسعة ، فضلاً عن توفيقه الفني في البدء من النهاية ، ثم " الارتداد " إلى الجوانب التى يريد تصويرها من تجربته معها .

ها هى ذى " أميمة " ترحل وتصبح " ماضيًا " بعد أن كانت حاضرًا يملأ حياته بهجة وأُنْسًا ويسيطر " الماضى " و " الرحيل " على مشاعر الشنفرى سيطرة طاغية تنعكس في هذا الحشد الضخم من الأفعال الماضية في مفتتح القصيدة ، فنرى حوالي خمسة عشر فعلاً ماضيًا (أجمعت ، ودّعت ، تولت ، سبقت ، كانت ، أظلت ، أمست ، باتت ، أصبحت ، قضت ، استقلّت ، ولّت ، طمع ، زلّت) .

وإذا ما تأملنا هذه الأفعال ، وجدنا في ستة منها حرف " الهمزة " - ذا النطق الصعب والجَرْس الشديد - وكأنه ترجيع لأنات الشاعر الحزينة ترجيعًا يتجاوب مع ما قد توحى به " الشدَّة "من القلق العنيف في ستة أخرى من الأفعال .

إن الماضى - هنا - ماض سعيد ، ولذلك فلوعة الشاعر عليه لوعة مضاعفة ، وشعوره بسرعة انقضائه شعور حاد مرير ، فقد عقدت "أميمة" العزم على الرحيل بسرعة خاطفة " أجمعتْ فاستقلّتْ " لدرجة أنه لم يصدق عينيه وهو يرى سَمَر الليل وأحاديث

الرحيل تتحول إلى واقع أليم يحاول الهرب منه دون جدوى " أرى أم عمرٍو " وكأنه يستكثر على هذه السيدة التى يقدرها ، ويكنى عن اسمها أنْ تَفعلَ ما فعلت ، بل تنفذه بهذه السرعة ، وأكثر من ذلك أنها لم تصغ لنصح الناصحين لها بالبقاء فاستبدت برأيها وأنفذته " وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها " وإزاء ذلك كله سيطر الرحيل على مشاعر الشنفرى ، حتى صار لا يبصر أمامه سوى أعناق الإبل تملأ الأفق أمام ناظريه وتتهادى بمن فوقها من الأحبة الراحلين " وكانت بأعناق المطىِّ أظلّتِ " ثم "سالت بأعناق المطىِّ الأباطحُ" وتلح صدمة الفراق على الشاعر أكثر فأكثر خلال تلك الزفرة اللاهبة "بعينىَّ" وهو لا يكاد يصدق انهيار كل آماله بهذه السرعة العجيبة ، وهذا التوالى المخيف ، وعجزه عن أن يفعل شيئًا يوقف به ما يحدث أو يخفف من سرعة إيقاعه الرهيب "أمستْ فباتت فأصبحت فقضّت فاستقلّت فولّت" متمثلة في توالى حرف العطف "الفاء" وكثرته بين الأفعال الماضية .

وإذن فهو لا يملك إلاّ الأسى لما وقع ، والتحسر على انهيار آماله ، والندم على أنه أطلق لها العِنان (فواكبدا) ويروى : فوائدَما على أميمة بعدما طمعت .

ثم يلتمس الشاعر العزاء شأن المصاب بكارثة إطلاق الفروض المهدئة والمخففة لما يعانيه " فهبها نعمة العيش زلّت " والاستسلام لليأس العاجز ، واليأس إحدى الراحتين كما يقولون .

****

٢. ذكريات - وآلام (٥ : ١٤)

يقول الشنفرى:-

٥- فيـا جـارتي وأنـت غيـرُ مُليمـةٍ
إذا ذُكِـــــرَتْ ، ولا بـــــذات تقلَّـــــتِ

٦- لقـد أعجَبَتْنـى لا سَـقُوطا قناعُهـا
إذا مـــا مشـــتْ ، ولا بـــذاتِ تلفَّـــتِ

٧- تبيـتُ بُعيْـدَ النـوم تُهـدِى غَبُوقَهـا
لجاراتهـــــا إذا الهديَّـــــةُ قلَّـــــتِ

٨- تَحُـلُّ بمنجـاةٍ مـن اللَّـوم بَيتَهـا
إذا مـــا بيـــوتٌ بالمذَمَّـــةِ حُلَّـــتِ

٩- كـأنَّ لهـا فـي الأرضِ نِسـيًا تقصُّـهُ
علـــى أمِّهـــا وإن تكلّمْـــك تَبْلَـــتِ

١٠- أَميمـة لا يُخـزى نِثَاهـا حليلَهـا
إذا ذُكـــرَ النســـوانُ عَفَّـــتْ وجَلَّـــتِ

١١- إذا هـو أمسـى آب قُـرَّة عينـهِ
مـــآبَ الســـعيد لـــم يَسَـــلْ أيـــن ظَلَّـــتِ

١٢- فـدقَّتْ وجلَّـت واسـبكرَّتْ وأَكْمِلَـتْ
فلـــوجُنَّ إنســـانٌ مـــن الحســـنِ جُنَّـــتِ

١٣- فبتْنـا كـأنَّ البيـت حُجِّـرَ فوقنـا
بريحانـــــةٍ رِيحَـــــتْ عِشـــــاءً وطُلَّـــــتِ

١٤- بريحانـةٍ مـن بطـنِ حَلْيـةَ نـوَّرت
لهـــا أرَجٌ ، مـــا حولهـــا غيـــرُ مُسْـــنِتِ

معانى المفردات :-

(٥) غير مليمةٍ : لا تفعل ما تُلامُ عليه - تقلت : من القِلَى ، وهو البغض وقوله : " ولا بذات تقلَّت " أى : ليست ممن يقال فيها أنها تقلّت ، فأضاف الفعل على تقدير : ولا بذات صفةٍ يقال لها من أجلها : تقلَّت فلانة .

(٦) لا سقوطًا قناعُها : لشدة حيائها - ولا بذات تلفُّتِ : لا تتلفت يَمْنةً ويسرة فتثير ريبة من يراها .

(٧) بُعَيْد النوم : بعد أن ينام الناس ويسيطر الليل بهدوئه - الغبوق : ما يُشرب بالعشىّ من اللبن- تهديه لجارتها : تؤثرها به - إذا الهدية قلّتِ : يريد زمن الجدب الذى يقل فيه العطاء ، وينحصر همُّ كل جماعةٍ في توفير زادها تغلبًا على الضَّنكِ المحيط بها .

(٨) تَحُلُّ : هذا الفعل يتعدى إلى المفعول به بنفسه كما هنا (تحل ٠٠ بيتها) ويتعدى كذلك بالحرف - المنجاة : مَفْعَلة من النجوة ، وهى الارتفاع ، يريد أنها متسامية على مثل هذه الصغائر- إذا ما بيوت بالمذمة حُلَّت : إذا ما أصبح غيرها مضغة في الأفواه ، فلاكتْ سيرتهنَّ الألسنة ، وصارت بيوتهنَّ ذات سمعة سيئة .

(٩) النِّسْىُ : الشىء المفقود المنسى - تقُصُّه : تتبعه - أمِّها : بفتح الهمزة : قصدها الذى تريده تَبْلَتِ : توجز في كلامها ولا تطيله ، ولا تترك مجالاً للأحاديث المشبوهة معها .

(١٠) النَّثا : ما أخبرت به عن الإنسان من حُسن أو قبح وما يُشتهر به المرءُ ، يقال: نَثا الحديث نَثْوًا : أشاعه وبثّه - حليلَها : زوجها .

(١١) آب : رجع - قرّة عينه : بهجتها وسعادُتها " وقرة " مفعول على أن الفعل " آب " متعد بنفسه أو منصوب على نزع الخافض ، أى : آب إلى قرة عينه - مآب السعيد : عودة المبتهج المشرق إلى زوجه - لم يَسَلْ أين ظلّت : لم يسألها أين كانت ولا مَنْ حادثت ؛ لأنه يعلم أنها لا تغادر بيتها في غيبته ، ولا تحدّث أحدًا إلاّ في حال وجوده .

(١٢) فدقَّتْ : صغر في جسمها ما يُحبُّ فيه ذلك كالخاصرة مثلاً .
جلَّتْ : عظمت وسمنت في أعضاء الجسم التى يزيدها ذلك جمالاً- اسبكرَّتْ :طالت الطول الملائم لجسمها - وأُكملتْ : كأنه لا يستطيع أن يعدد كل الصفات الجسمية الآسرة التى تتصف بها .
(١٣) حُجِّرَ : أحيط - ريحانة : زهرة ذات عبق جميل - ريحتْ : حرّكتها الريح فنشرت عطرها في المكان المحيط بها - طُلَّت : أصابها الطلُّ ، وهو الندى ، فجمع إلى رائحتها الجميلة : منظرها المبهج للعين ، يتناثره فوقها كحبات الفضة .
(١٤) حَلْيةَ : وادٍ بتهامة ، أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة - وبطن حلْية في حَزَنٍ ، أى : أرض غليظة ، وبنت الحزَن أطيب من غيره ريحًا .
الأرج : توهج الريح وتفرقها في كل جانب - المُسْنِت : المجدب .

****

الشرح:-

كان من الطبيعى أن يحاول الشنفرى بعد " صدمة الفراق " التماس العزاء تخفيفاً لما تجرعه من عذاب ، وإذا حاولنا تمثل تجربته - التى كانت تنطبق على مَنْ عانى مثلها من البشر- أمكن أن نتخيله قد قبع في خيمته بعد رحيل " أميمة " وهو يعانى من صمت قاتل ، ويقيم بينه وبين المحيطين به حاجزًا صفيقًا يحول بينهم وبين الاقتراب من أعماقه بغية التنفيس عما يغلى بداخلها من انفعالات .

ثم تتغلب " إرادة الحياة " ويخفف مرور الزمن آثار الصدمة شيئًا فشيئًا ، فيتجه الشنفرى إلى ذكرياته مع " أميمة " ليقتات منها ، ويرطب بعذوبتها جفاف حياته القاسى بعد رحيلها ، لكنه يكتشف أن ما مضى قد مضى ولن يعود ، وإنه وإن أعطاه الخيال حق التجوال بين تلك الذكريات والتنعم بها والسعادة لاستعادتها ، فإنه يريد الواقع وينشد السعادة في هذا الواقع - وتلك هى العلاقة العجيبة التى عانى من استمرارها : يلجأ إلى الخيال ويفرح به ، لأنه يعطيه كل ما يشاء - على حين أنه يريد الحقيقة وينشد الواقع الذى لا يعطى كل شيء ، بل هو قد حرمه من كل شيء .

٢. الهروب من الواقع المؤلم

يقول الشنفرى :-

١٥- وباضـــعةٍ حُمْـرِ القِســيِّ بَعَثْتُهــا
ومَـــنْ يغْـــزُ يغـــنمْ مـــرّةً ويُشـــمَّتِ

١٦- خرجنا من الوادى الذى بين مِشعلٍ
وبـــين الْجَبَـــا هيهـــات أنشـــأتُ سُـــرْبَتِى

١٧- أَمشِّـى علـى الأرض التـى لـن تضـرَّنى
لِأَنكِـــــىَ قومًـــــا وأُصـــــادف حُمَّتِـــــى

١٨- أَمشِّـــى علـــى أيْـــنِ الغـــزاةِ وبُعْـــدُها
يُقرِّبُنـــــى منهـــــا رَوَاحِـــــى وغُـــــدْوتى

١٩- وأمٌّ عيـــالٍ قـــد شـــهدتُ تقـــوتُهمْ
إذا أَطعمـــــــتْهُم أَوْتَحَـــــــتْ وأقلَّـــــــتِ

٢٠- تخـافُ علينـا العَيْـل إنْ هـى أكثـرتْ
ونحـــــن جيـــــاعٌ ، أىُّ آلٍ تأَلَّـــــــتِ

٢١- ومـا إنْ بهـا ضِـنٌّ بمـا فـي وِعَائهـا
ولكنهـــا مـــن خيفـــة الجـــوع أَبْقَـــتِ

٢٢- مُصَـــعْلِكةٌ لا يَقْصُـــر السِّـــتْرُ دونَهـــا
ولا تُرْتَجَـــــى للبيـــــت إنْ لـــــم تُبيِّـــــتِ

٢٣- لهـا وَفْضـةٌ فيهـا ثلاثـون سَـيْحفًا
إذا آنَسَـــــتْ أَولًـــــى العَـــــدِي اقشـــــعَرَّتِ

٢٤- وتـأتى العَـدِىَّ بـارزًا نصـفُ سـاقها
تجـــــولُ كعَيْـــــرِ العانـــــةِ المُتلَفِّـــــتِ

٢٥- إذا فزعُـوا طـارت بـأبيضَ صـارمٍ
ورَامَـت بمـا فـي جَفْرِهـا ثُـمَّ سَـلَّتِ

٢٦- حُسـامٍ كلـون المِلْـح صـافٍ حديـدُه
جُـزَازٍ كأقطـاعِ الغـدير المُنُعَّـتِ

٢٧- تراهـا كأذنـاب الحَسِـيلِ صـوادرًا
وقـد نَهِلَـتْ مـن الـدماءِ وعلَّـتِ

٢٨- قتلنـا قتـيلاً مُهْـديًا بِمُلبِّـدٍ
جِمـارَ مِنـىً وسـط الحجـيجِ المُصَـوِّتِ

٢٩- جَزَيْنـا سـلامانَ بـنَ مُفْـرِجٍ لهـا
بمـا قـدَّمَتْ أيـديهمُ وأزَلَّـتِ

٣٠- وهُنِّـئَ بـى قـومٌ ومـا إنْ هنـأْتُهُمْ
وأصـبحتُ فـي قـومٍ وليسـوا بِمُنْيَتِـى

٣١- شـفينا بعبـد الله بعـضَ غليلنـا
وعـوفٍ لَـدَى المَعْـدَى أوَانَ اسْـتَهَلّتِ

معانى المفردات:-

(١٥) الباضعة : القاطعة ، يعنى : قومًا غزاة ٠ حمر القسىّ : غزوا مرة بعد مرة فاحمرّت قسُّيهم ٠ بعثتُها : بعثتُ هؤلاء وغزوتُ بهم ٠ يُشمَّت : من قولهم : شمَّته الله : أى خيَّبه الله ، والشِمات (بكسر الشين وتخفيف الميم) الخيبة .

(١٦) مِشْعل ، والجبا : موضعان ٠ السُّرْبة : الجماعة٠ وأنشأت سربتى: أى : أظهرتهم من مكان بعيد .

(١٧) لن تضرَّنى: لا أخاف بها أحدًا ٠ لأَنْكِىَ : يقال :نَكَى العدو ينكيه نكاية : أى : أصاب منه . الحُمَّة : المنيّة .

obeikandl.com

(١٨) أمشّى : إشارة إلى غزوه على رجليه وأنه لايركب ٠ على أينِ الغزاة : على ما يصيبنى من تعب الغزوة .

(١٩) أراد بأم عيال : تأبط شرًا ؛ لأنهم حين غزوا جعلوا زادهم إليه ، وكان يقتر عليهم مخافة أن تطول أيام الغزو بهم فيموتوا جوعًا ٠ والأزد تسمى رأس القوم وولى أمرهم : أُمًّا .

أوتحت : أعطت قليلاً ، ومثلها (وأقلَّتِ) ٠ وقد ساق الشاعر الكلام عن تأبط شرًا بلفظ المؤنث تمشيًا ومراعاة للفظ " أم " .

(٢٠) العَيْل والعَيْلة : الفقر ٠ أىُّ آلٍ تأَلَّتِ ؟ أىُّ سياسة ساست ؟ يقال : أُلْتُه أؤُلُه أولاً : إذا سُسْتَهُ ، وبابه " قال" .

(٢١) ضِنٌّ : بخلٌ ، وهو بكسر الضاد ، والفتح لغة فيه .

(٢٢) مُصعلِكة : صاحبة صعاليك ، وهم الفقراء ٠ ولا يَقْصُر السِّتْرُ دونَها: لا تُعَطّى أمرها ، يقول : هى مكشوفة الأمر ٠ لا تُرْتَجى للبيت : لا تُرْتجى أن تكون مقيمة ، إلاّ أن تريد ذلك فتجئ .

(٢٣) الوفضة : جعبة السهام ٠ السَّيْحَفُ : السهم العريض النَّصل ٠ آنَسَتْ : أحسَّتْ ٠ العَدِىّ : جماعة القوم يعدون راجلين للقتال ونحوه ، لا واحد له من لفظه ٠ اقشعَرَّتْ : تهيأت للقتال .

(٢٤) بارزًا نصف ساقها : يريد أنه مشمِّرٌ جاد ٠ العَيْر: حمار الوحش ٠ العانة : القطيع من حُمُر الوحش ، وإنما شبَّه بعير العانة ؛ لأن الحمار أغيرُ ما يكون .

(٢٥) الأبيض : السيف الصارم القاطع ٠ الجَفْر: كنانة السهام ، يعنى : أنه يرمى بما في كنانته ثم يحارب بسيفه .

(٢٦) الجُراز :السيف القاطع ٠ أقطاع :جمع قِطْع (بكسر فسكون) كالقطعة ٠ والمراد بأقطاع الغدير : أجزاء الماء يضربها الهواء فتتقطع ويبدو بريقها ٠ المنعَّتِ : مبالغة من النعت ، وهو الوصف بالحسن .

(٢٧) الحسِيل : جمع حَسيلة ، وهى أولاد البقر ، شبه السيوف بأذناب الحسيل إذْ رأت أمهاتها فجعلت تحرك أذنابها ٠ والنَّهْل : الشرب أول مرة٠ والعَلُّ : الشرب بعد المرة الأولى ، وهما هنا للسيوف .

(٢٨) مُهْديًا : محرمًا قد ساق الهدى ٠ بملبَّد : هو الكبش ذو الصوف الكثيف الذى يقدم هَدْيًا ٠ جِمَار منىً: أى عند الجمار ٠ المصوِّت : المُلبِّى .

(٢٩) سلامان بن مُفْرج : هم هؤلاء الذين أسروه فداءً ، ومنهم حرام بن جابر قاتل أبيه ٠ أزلَّتِ : قدَّمتْ .

(٣٠) يريد بهذا البيت : أنه هُنّئ بى بنو سلامان حين أخذونى في الفدية ، وما انتفعوا بى ٠ بِمُنْيَتى : أى ليس هؤلاء القوم ممن أحبُّ وأتمنى العيش في رحابهم ٠ ويُروَى البيت : بِمَنْبَتى : أى بأصلى وعشيرتى .

(٣١) الغليل : حرارة العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل ٠ عبد الله وعوف : من بنى سلامان ابن مُفْرج .

المَعْدَى : مكان العَدْو وهو الجرى٠ والمراد : ساحة القتال ٠ أوانَ استهلَّتِ : في الوقت الذى ارتفعت فيه الأصوات في للحرب .

****

٤. هزيمة ... وتمرد

٣٢- إذا مـا أَتَتْنـى مَنِيَّتـى لـم أُبالِهـا
ولـــم تُـــذْرِ خـــالاتى الـــدموعَ وعمَّتـــى

٣٣- ولـو لـم أرِمْ فـي أهـل بيتـىَ قاعـدًا
إذنْ جـــاءَنِى بـــين العمـــوديْن حُمَّتِـــى

٣٤- أَلاَ لا تَعُـذْنِى إن تشـكَّيْتُ خُلَّتـى
شَـــفَانى بـــأعلى ذى البُـــرَيْقَيْنِ عَـــدْوتى

٣٥- وإنّـى لحُلْـوٌ إن أَريـدتْ حلاوتـى
ومُـــرٌّ إذا نفـــسُ العَـــزُوفِ اسْـــتمرَّتِ

٣٦- أبِـيٌّ لمـا آبَـى سـريعٌ مَبَـاءَتِى
إلـــى كـــل نفـــسٍ تنتحِـــى فـــي مَسَـــرَّتى

(٣٢) لم أرِمْ : لم أبرح ٠ العمودين : لعله أراد بهما عمودى الخباء ٠ الحُمَّة : المنية .

(٣٣) الخُلة : الخليل ، وهو هنا ينهى خليله أن يعوده إذا مرض ؛ وذلك لأنه مُتطوِّح يلزم القفر مخافة الطلب .

ذو البُرَيْقَيْن : موضع العدوة ، وهى المرة من العدو ٠ يريد أن سرعة عَدْوه سلاح يُشتفى به كرًا وفرًا .

(٣٤) العَزُوف : المنصرف عن الشىء ٠ استمرَّت : استفعلت ، من المرارة .

(٣٥) المباءة : الرجوع ٠ تنتحى في مَسَرَّتِى : تقصد إلى ما يَسُرُّنى .

الشرح:-

حين لم تظهر نتيجة ملموسة لمحاولة الشاعر الهروب من الواقع المؤلم ، لجأ إلى محاولة أخرى ، هجر فيها الوحدة والانعزال ، وانخرط- أو دعا إلى الانخراط- وسط جماعته من الصعاليك ، فأشاد بهم وبقيادتهم ، وتحدث عن أسلوب حياتهم ، ولمس

جوانب مضيئة من هذه الحياة ، وتريث أمام دوره البارز في هذا المجتمع ويبدو أن ذلك كله كان نوعًا من العزاء ، ومحاولة منه للهروب من المحنة التى تجرع آلامها .

لكن هذه المحاولة لم تكن أفضل من سابقتها في تحقيق ما أراد ، فلم تُنْسه المغامرات الكثيرة التى خاض غمارها جُرْحه الغائر في أعماقه ، ولم تطفئ النيران الغزيرة التى أحرقها نيران مصيبته التى تكوى أعماقه .

ولذلك وجدناه فى ختام تجربته حزينًا يزفر زفرات اليأس والقنوط ليتعانق هذا الختام مع البداية الأسيفة الملتاعة للتجربة ٠٠ وتظل الأنثى - خلال هذا كله - وراء ما عاناه في البدء والنهاية .

حقيقة لقد حاول الشنفرى في ختام تجربته أن يتماسك ، ويُلمَّ شتات نفسه الممزَّقة ، ويظهر بمظهر الهدوء والوقار ٠٠ وهذا شيء طبعى بعد محاولات العزاء التى التمسها ، وتخفيف الزمن الذى يخفف الجراح ويأسوها بيد أن حزنه ويأسه يمكن لمسه بسهولة من خلال تعبيره عن تجربته .

فعلى الرغم من أنه يُنهى تطوافه في المغامرة وإراقة الدماء بسعادته الغامرة ، لثأره من ظالميه " بنو سلامان بن مفرج " على الرغم من ذلك نلمس حزنه الدفين غائرًا وسط تلك الهالة التى أراد أن يوهمنا بها أنه تجاوز محنته تمامًا:

إذا مـا أَتَتْنـى مَنِيَّتـى لـم أُبالِهـا ∴ ولـم تُذْرِ خـالاتى الدموعَ وعمَّتـى

ولـو لـم أرِمْ فـى أهل بيتـىَ قاعدًا ∴ إذنْ جاءَنِى بين العموديْن حُمَّتِى

- فالنفى في البيت الأول هنا ربما كان أدل على الإثبات من الاعتراف ، ولا يعدو هذا النفى أن يكون دعوى إنسان مهزوم يحاول أن يخفف عن الحزن الذى تجرعه في حياته ، وإلاّ فما هى تلك الآمال العذاب التى حققها ، والتى تجعله يستقبل نهايته بابتسامة الرضا وعدم المبالاة ؟!

- والبيت الثاني ، وإن برّر به منهج حياته الذى اختاره أو أريد له ، فإنه يحمل شحنة طاغية من الأسى الدفين ؛ لأن هذه الحياة القلقة التى عاشها كانت - دون شك - أحد الأسباب التى نفّرت " أميمة " منه ، وفرّقت بينها وبينه ، وهو نفسه يشعر بمرارة وحدته على الرغم من محاولته الاستعلاء عليها ، ورفضه المواساة من أصدقائه " ألاَ لا تَعُدْنى إن تشكّيت٠٠٠" .

موهمًا نفسه بأن كثرة غزواته ، وغزارة الدماء التى أحرقها يمكن أن تغطى على الجرح الغائر في أعماقه " شفانى بأعلى ذى البُرَيْقَينِ غدوتى " فهذا الجرح يبرأ بكثرة الكر والفر من وجهة نظره ٠ فظل يتوق إلى لحظة من لحظات الهناء التى عاشها مع " أميمة " وبدا وكأنه - عبر الفلوات الشاسعة التى تفصل بينهما - يخاطبها ويُمنّيها الأمانى العِذاب ، ويذكرها ببعض الجوانب المضيئة من حياته معها ، واعدًا إياها بالكف عما أغضبها منه من سلوك ، ومُحذرًا لها من استمرار القطيعة مع نغمة استعلاء وأنفة وحزم غير مستغربة منه :

وإنّــى لحُلْــوٌ إن أُريــدتْ حلاوتــى ∴ ومُـرٌّ إذا نفسُ العَزُوفِ اسْتمرَّتِ

بل إنه هنا يبدو وكأنه يحمّلها بعض التبعة فيما انقلبت إليه حياته فهى لم تعن نفسها كثيرًا بالأخذ على يديه والحيلولة دونه ودون الطريق الذى اختاره أو أريد له ، توحى بذلك " إنْ " الدالة على الشك والتقليل ٠ على حين تشير " إذا " إلى تحقق عزوفها عنه ، وإهمالها شأنه ، فصار إلى ما صار من حقد ومرارة وثورة على مجتمعه .

****

تعليق ونقد

لمسنا - من خلال ما سبق - الرابطة الخفية الدقيقة بين بدء القصيدة وختامها ، ورأينا مشاعر الأسى تعصف بوجدان الشنفرى بعد رحيل "أميمة" المفاجئ ، ثم من خلال الزفرات اليائسة الآملة اللائمة التى أطلقها في ختام التجربة .

وفيما بين البدء والختام كانت للشاعر محاولات عديدة التمس في بعضها العزاء من خلال الاستغراق فى ذكرياته السعيدة مع محبوبته ، وحاول في بعضها الآخر الهروب من واقعه الأليم الى الانخراط مع جماعة الصعاليك ، أو استئناف حياته السابقة معهم. بتعبير أدق . ونلحظ أنه خلال استغراقه في الذكريات ركز على الأمور الآتية :

- أنه أكثر من حديثه عن " أميمة " بضمير الغائب ، ولم يتكلم عنها بضمير الخطاب إلاّ في الشطر الأول من البيت الخامس الذى يعتبر أول الأبيات في استرجاعه ذكرياته معها .

وهو فى هذا الخطاب يناديها بـ " يا " المُشعرة بالبعد ، ويجعلها جارته ، بعد أنْ كانت قريبة منه لصيقة به .

ويكنّى عنها بـ " أم عمرو " أو يذكر اسمها تلذذًا بذكره حين يندبها "فواكبدا على أميمة" .

وهذا المنحى يُشعرنا بأنه بدأ يدرك حجم الصدمة التى تعرّض لها ، ولذلك وجدناه بعد هذا الخطاب القصير في بداية البيت الخامس يتحدث عنها بضمير الغائب ، ويستمر هذا الحديث طوال تجواله بين ربوع ذكرياته معها .

نعم ، لقد غابت وصارت حياته معها ماضيًا لا سبيل إلى استرجاعه ، وإذن فليس أمامه إلاّ استرواح نسماته ، والهروب إلى أيامه السعيدة .

- أنه صوّر هذا الماضى الذى يتحدث عنه بصورة مثالية ، تبدو من خلالها صاحبته موسومة بكل جمال ، محوطة بكل إجلال .

وهذا طبيعى من محبٍ تتلون نظرته لماضيه تبعًا لمشاعر الحب والتحسر التى تضطرب بها جوانحه ، إذن : فليس بعجيب ولا بغريب أن يُضفى البهاء والكمال على هذا الماضى الذى ذهب ولن يعود .

استطراد ضرورى

هنا لابد أن نشير إلى أمر مهم وهو (موقف الشنفرى من القيم الخُلُقية المتعلِّقة بالمرأة) ٠ إن هذا الرجل . رغم صعْلكته وثورته على مجتمعه ورفضه لقيمه- يقف أمام القيم الخلقية المتعلقة بالمرأة وقفة إذعان وتسليم ، بل إعجاب وإجلال .

ولا ندرى هل كان ذلك لأنه صور هذه القيم من خلال المرأة التى أحبَّها فانعكست مشاعره على تصويره ؟ أم أن السبب الحقيقى لذلك : هو أن القيم المتعلقة بالمرأة في العصر الجاهلى قد رسخت رسوخًا قويًا ، وضربت بجذورها في أعماق التربة ، فصارت من العراقة والثبات بحيث استعصت على تلك الهزات الاجتماعية التى تمثلت في ثورة الصعاليك .

فلم تكن هدفًا من الأهداف التى قصدوا إلى تغييرها ، بل إنهم رضوا عنها ، وأعجبوا بها ، وتقبّلوها قبولاً حسنًا .

نريد أن نخلص من ذلك إلى : أن الصفات الخُلُقية التى ذكرها لهذه الزوجة كانت من العراقة والرسوخ والامتداد في جذور التربة العربية ، بحيث صمدت لهذه الحركة الثورية العنيفة ، فلم تستطع أن تزلزلها أو تُحدث فيها اضطرابًا ، لا ، بل إن المجتمع الجاهلى من هذه الناحية قد حاز إعجابهم ، فرأى (هؤلاء الثائرون) أن يزيدوا هذه القيم رسوخًا ، وأن يشيدوا ويتيهوا بها - ونتيه معهم ونفخر - على العالمين .

ومن هنا ، جاء هذا الشعر على لسان الثائر المتمرد (الشنفرى) وكأنه على امتداد عشرات القرون - يمسك بيده شعلة مضيئة تهتدى بها المرأة العربية ، أو المسلمة ، وتحاول الاقتراب من هذا المثل الأعلى للزوجة الصالحة ، التى تأنف بعزة وكبرياء من الاستسلام لعقلية القطيع ، والانقياد وراء التقليد الأعمى لكل ما هو بعيد عن مُثلنا وقيمنا وحضارتنا.

فالمرأة الجاهلية قد تمكنت - على ما هى فيه من فقر وبداوة - أن تحقق لزوجها ما تحققه له الزوجة الصالحة من الدعة والهدوء والسعادة ، ثم جاء الإسلام فجعل من " الزوجة المسلمة " نموذجًا رفيعًا يحق للمرأة من كل دين أن تعتز بوصول بنات جنسها إلى هذا المستوى الأخلاقى السامق .

وها هى ذى أم المؤمنين السيدة خديجة " زوجةٌ مخضرمةٌ " اقترنت بالرسول- ﷺ- وهى مزودة بتلك القيم العظيمة من العصر الجاهلى ، فوقفت منه عقب نزول الوحى عليه ، ذلك الموقف النادر الذى شدّتْ فيه من أزره ، وعاونته على امتصاص قسوة المفاجأة ، موقنة بأن اللّه لن يخزيه أبدًا ، ولما أهلَّ الإسلام وجد التربة خصبة في هذه الناحية ، فأنمى نباتاته الغضة ، وأكمل البناء الأخلاقى الوليد وصدق اللّه العظيم إذ يقول :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ..... ﴿٢١﴾ ﴾(١) [الروم:٢١] .

صدق الله العظيم .

إذن فالمرأة الجاهلية لم يكن يشيع فيها هذا النوع الناشز الذى لا يرعى حرمة العشرة بينه وبين الزوج ، ولا تصمد في مواجهة المحن والأرزاء ، كموقف أمامة زوج " الجُمَيْح " كما أنه لم يشع بين نساء هذا العصر تلك المرأة التى شدّت عن القيم الخلقية للعصر ، وتحولت إلى دمية كل مهمتها تحقيق المتعة الهابطة للشاذين من الرجال ، مع ملاحظة أن بعض الشعراء " كامرئ القيس " ومن بعده مثل " عمر ابن أبى ربيعة " قد بالغوا في تصوير غزواتهم النسائية ، فأظهروا النماذج التى تحدثوا عنها في صور هابطة مقززة ، ولاشك في أنها كانت - كذلك - منفّرة لأذواق مجتمعهم الذى لم ينجح تمامًا في الضرب على أيديهم ، ليكفوا عن شذوذهم وفجورهم واكتفى - في بعض الأحيان - بنفيهم من بين صفوفه ؛ ليعيشوا بعيدًا عنه حياتهم اللاهية الماجنة .

ومهما يكن من شيء فلابدّ أن نعود إلى تصويره لتلك المرأة التى أثرت فيه وملأت عليه أقطار نفسه ، إن المثير - حقًا - للإعجاب أن الصفات التى بهرت هذا " الصعلوك المتمرد " يتصل معظمها بالقيم الخلقية الرفيعة ، وعندما تحدث عن جمالها

١- سورة الروم ، آية : ٢١ .

الجسمى أو الحسِّى ، جمع فأوعى ، وأشعرنا بأنه يحتل مرتبة تالية في الأهمية لصفاتها الخُلُقية العالية التى تحلّت بها داخل بيتها وخارجه فهى خارج بيتها ؛ حيَّية متحجّبة ، يوحى مظهرها بالاحترام ، ويُجْبر عليه ، وهى جدُّ حريصة على الالتزام بهذا المظهر ، فهى لا تفتعل مواقف تؤدى إلى التخلص من الحجاب وسقوط خمارها ، وحتى إذا حرّكه الهواء مثلاً ، فسرعان ما تعيده إلى حالته الأولى هذا من حيث مظهرها واقفة أو سائرة تؤدى مهمة خارج بيتها ، فإذا ما سارت في الطريق فهى تغضُّ بصرها ، ولا تميل يمنة أو يسرة ، ومن هنا حُقَّ للشاعر - وحُقَّ لنا معه - أن يصيح تلك الصيحة المعجبة :

لقد أعجبتنى لا سقوطٌ قناعُها ∴ إذا ما مشتْ ، ولا بذات تلفُّتِ

وهى داخل بيتها - كما توحى القصيدة - تعيش في رفهٍ من العيش تظلله تلك السعادة التى تنعم هى وأسرتها بها .

لذلك تحرص - شأن الإنسان النبيل - على أن تضاعف سعادتها بإشراك الآخرين من جيرانها الأدنين الغابطين لها المراقبين لما ترفل فيه من حلل السعادة ، فهى لا تحرم جيرانها من خيرات النعم الوفيرة التى تتمتع بها .

وانظر كيف تتعمد إخفاء ما تفعل ، فهى تنتظر حتى يجنَّ الليل ، ويهدأ الكون ، ثم ترسل بعطائها الى هؤلاء المحتاجين ، وهذا أساس طيب لخلق رفيع زكّاه الإسلام ، ورغب فيه ، حين قال الرسول (ﷺ) :

" ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه " ولا تظن أن هذه الزوجة ذات الخلق الرفيع ، قد فعلت ذلك دون إعلام زوجها ، أو في غفلة منه ، بل لابدَّ أنه كان عالماً به ، سعيدًا بما يفعل مباركًا له ٠ وانظر إلى الوقت الذى تُهدِى فيه : إنه (إذا الهدية قلّت) هو وقت الجدب - وما أكثر ما تجدب الصحراء - الذى يستحث الإنسان على الشح ، تغلبًا على هذا القحط الذى لا يُعْلم له نهاية ! إذن فأول صفةٍ أشاد بها داخل بيتها : هى أن سعادتها تظلل غيرها ، وخيرها يشمل جيرانها ومن الطبيعى - رغم تعمدها

إخفاء ما تفعل - أن تذيع سمعتُها الطيبة بين مجتمعها ، فلا يوحى ذكرها بغير الإشادة بها والإجلال لها ، وأن يحتل بيتها قمة رفيعة لا يلحقها ذم .

وقبل أن يعدد الشاعر صفاتها الخلقية داخل بيتها يعود فيستكمل صورتها خارجه ، فيصوّر طريقها في السير ، وكيفية حديثها تصويرًا رائعًا :

كأنَّ لها في الأرض نِسْيًا تَقُصُّه ∴ على أمِّها ، وإنْ تُكَلِّمْكَ تبْلَتِ

فهى من شدة حيائها إذا مشت ، تمشى وكأنها نسيت شيئًا مهمًّا في مكان ما ، لذلك تقصد إلى هدفها من أقرب الطرق ، ولا تضيّع وقتها في غير ما هدفٍ خارج بيتها ، وانظر إليها إن اقتضى الموقف حديثًا معها : إنها تختصر الكلام وتوجزه ، كمن يرسل برقية يدفع في كلماتها أجرًا !

وقد أدى هذا السلوك الرفيع إلى أنها أصبحت تشرِّف الرجل الذى تنتسب إليه ، وترفع رأسه عاليًا بين أقرانه ؛ لأنه لا يسمع عنها إلاّ كل خير، وهى بين قريناتها مرتفعة الهامة ، حسنة السمعة .

وإن بيتًا يشيع فيه مثل هذا الجو من المودة والرحمة والسكينة ، ليجذب ربَّه إليه ويجعله دائمًا مشوقًا إليه ؛ لأنه سيلقى تلك الشريكة التى تقرُّ بها عينُه والتى حوّلت بيته إلى جنة صغيرة يشيع فيها الحب والسعادة ، فبيته ليس كبعض البيوت التى تتحول إلى (قوة طاردة) للأزواج ، فيضطرون إلى تعاستهم في الخارج بما يعود على بيوتهم بالضرر البالغ .

وبعد أن رسم الشاعر هذه الصورة الخُلُقية البديعة لتلك الزوجة ، كأنه خشى أن يُظنَّ بها أن مميزاتها قد انحصرت في الجانب الخلقى (وما أعظمه من جانب) أو ربما كان حرصها عليه نوعًا من تعويض نقصٍ في جمالها الجسمى ، ولذلك وصف جمالها وكشف عن روعته في بيت مركّز مشحون بالإيحاءات المتنوعة الدلالة :

فدقَّتْ وجلّتْ واسبكرّتْ وأُكملتْ ∴ فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسن جُنَّتِ

فجسمها بلغ غاية الجمال والتنسيق ، فدقّت أعضاؤه التى يُحبُّ فيها ذلك كما عظمت وكبرت الأعضاء الأخرى أن ينبغى أن تكون كذلك .

وبعد هذا الوصف البليغ المشحون ، احتار فيما يختاره من صفاتها الجمالية ، لأنها كثيرة تفوق الحصر ، فقال : (وأُكمِلَتْ) فليس في جسمها شيء يُعاب بل هى كاملة مكمَّلة .

وقد زانت هذا الجمال العظيم بدماثة أخلاقها ، وتواضعها الجم ، فهى لا تُدِلُّ به على زوجها ، ولا تندفع بسببه الى ما يُشين ، مع أنها لو فعلت لكان لها العذر كل العذر (فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسن جُنَّتِ) !!

إن هذه الزوجة التى جمعت بين الحسنيين : الجمال الساحر ، والأخلاق الرفيعة ، قد ملأت على زوجها حياته وأخصبتها ، وأعطته خير ما يُعطاه المرء في دنياه (زوجة صالحة : إن نظر إليها سرَّته ، وإن غاب عنها حفظته) ولذلك رسم لها هذه الصورة البديعية ، فهى زهرة فواحة حرّكتها رياح هادئة ، فعبّقت بعطرها وشذاها المكان الذى تحل فيه .

لكن .. متى يحدث هذا ؟ في وقت المساء ، وقت الدعة والهدوء ، والتأمل في الكون والحياة وما أن يتنفس الصبح حتى تتهيأ هذه الزهرة الفوّاحة - أو الزوجة المثالية - لاستقبال قطرات الندى التى تتلألأ على أوراقها ، وتعكس أشعة شمس الصباح المنعشة ، فهى صباحَ مساءَ صورة للبهاء والألق والإشراق :

فبِتْنا كَأَنَّ البيت حُجِّرَ فوقنا ∴ بريحانةٍ رِيحَتْ عشاءً وطُلَّتِ

****

ثانيًا : مع امرئ القيس " الملك الضَّليل "

نشأته وحياته:-

امرؤ القيس هو حُنْدُج بن الحارث بن عمرو بن حُجْر آكل المرار ، وامرؤ القيس لقب له ، ومن ألقابه أيضًا الملك الضليل ، وذو القروح ، وقد أخذ اللقب الأخير من جملة القروح التى مات بها ، ويكنى أبا وهب أو أبا الحارث أو أبا زيد وآباؤه من كندة ، وكانوا ملوكها في الجاهلية وقد اتسع ملكهم فيها إلى أن دخلت فيه قبائل مَعدّ بنجد ووصل إلى بلاد العراق ، وهذا عندما عزل " قبَّاذ " ملك الفرس المنذر بن ماء السماء عن الحيرة ، وولى مكانه الحارث بن عمرو جَد امرئ القيس وقد أتته قبائل معدّ تهنئه بالحيرة ، وتطلب منه أن يُملّك أبناءه عليها ، فوزع أبناءه ملوكًا بينهما ، وجعل ابنه حجرًا ملكًا على بنى أسد وغطفان ، وكان له على بنى أسد إتاوة يؤدونها له كل سنة ، ولكنهم تنكروا له حينما عزل كسرى أنوشروان أباه الحارث عن الحيرة ، وأعاد إليها المنذر ابن ماء السماء ، فأخذ يناهض الحارث وأولاده ، ويغرى عليهم القبائل التى تدين لملكهم إلى أن أضعف دولتهم ، فقامت كثير من الحروب بين حجر وبنى أسد والتى انتهت بقتله سنة ٥٢٩م .

وكان امرؤ القيس أصغر أولاد حجر ، والأرجح أنه ولد سنة ٥٠٠ م كما ذكر " أرنست رينان " الفرنسى ، وقيل أنه ولد سنة ٥٢٠م ، وعلى هذا يكون قد عاش في القرن السادس الميلادى ، وقيل أنه كان أقدم من هذا القرن ، وبعضهم يرجح أنه عاش قبل القرن الخامس ، ولا يمكننا أن نصل إلى يقين في ذلك ، لأن تاريخ العرب في الجاهلية يكتنفه كثير من الغموض .

وكان لصغر سن امرئ القيس - بين إخوته - أثره في انصرافه عن ملك أبيه إلى حياة الشعر واللهو ، وكانت أمه فاطمة أخت كليب ومهلهل ابنى ربيعة ، فورث عن خاله مهلهل ميله إلى الشعر واللهو ، وقد تأثر في شعره به ، ويقال إنه هو الذى علمه الشعر ، ولكنه لم يتأثر به وحده ، بل تأثر أيضًا بشاعر آخر أدركه وأخذ عنه ، وهو أبو دؤاد الإيادى ، وقد ذكر ابن رشيق أنه كان يتكئ عليه ويروى شعره ، حتى عده بعضهم راوية له ، وكان أبو دؤاد وصافًا للخيل ، وأكثر شعره في أوصافها ، وكثير من شعر امرئ القيس فيها متأثر

بما جاء فيها من شعره ، وكان يعاصر امرأ القيس أيضًا من الشعراء عبيد بن الأبرص شاعر بنى أسد ، وكان من ندماء أبيه حجر ، وكذلك التوأم اليشكرى وعمرو بن قميئة وغيرهم وكان من أكثرهم أثرًا فيه بعد مهلهل وأبى دؤاد : عبيد ابن الأبرص ولهذا يتوافق شعرهما في معان وأساليب كثيرة. ومن خلال هذا العرض يتضح لنا أن امرأ القيس من أسرة عريقة ، كريمة الأصول ، عالية النسب ذات مجد وعظمة .

نشأ امرؤ القيس بأرض نجد في بنى أسد ونشأ على ما ينشأ عليه أبناء الملوك العرب في ذلك العهد ، فعاش في أضواء الشهرة والسؤدد . وفي بُلَهْنِيَة من العيش ، فأحب ركوب الخيل ومجالس الشراب ، وسلك مسلك المترفين ، فكان يلهو ويلعب ، ويُعاقر الخمر ويُغازل النساء ، كما كان مُولَعًا بالصيد ، شغوفًا بالرحلات ، محبًا للأسفار والتنقلات ، منهومًا بحب النساء ، وكان أبوه يؤمل فيه شابًا جلدًا فحاول أن يُبعده عن هذه الحياة اللاهية ، ولكن خاب أمله فيه ، ولما أنف أبوه من حياته الخليعة طرده وأقصاه عنه ، فخرج امرؤ القيس شريدًا طريدًا ، ومضى يتنقل بين أحياء العرب ومعه رفاق السوء من قبائل بكر يشربون ويطربون ، وما زال على هذه الحال حتى جاءه خبر مقتل أبيه وهو في اليمن فقال : "ضيعنى صغيرًا وحَمّلنى دمه كبيرًا لا صحو اليوم ، ولا سكر غدًا ، اليوم خمر وغدًا أمرّ" فترك حياة اللهو وآل على نفسه ألاّ يأكل لحمًا ولا يشرب خمرًا ولا يدَّهن بطيب ولا يلهو ولا يصيب امرأة ولا يغسل رأسه من الجنابة حتى يدرك ثأر أبيه .

خروجه في ثار أبيه:-

أخذ امرؤ القيس يعد العُدة ، ويستنجد بالقبائل لإدراك ثأره فكان يجيبه بعضها ويعتذر إليه بعضها ، فنازل بنى أسد وقتل كثيرًا منهم ، وكانت الحروب سجالاً بينه وبينهم ولكن المنذر بن ماء السماء أحد ملوك الحيرة تصدى بالعداء لامرئ القيس لعداوة بينه وبين الكنديين ، فألَّب المنذر على امرئ القيس العرب من إياد وبهراء وتنوخ ، فلم يكن لامرئ القيس بهم طاقة فأقبل يطوف بقبائل العرب ، ويستنجد بأشرافهم ، حتى ارتحل إلى الشام متوجهًا إلى قيصر الروم بالقسطنطينية فأكرمه ورفع منزلته ، وضم إليه جيشًا كثيفًا ولكن قيصر الروم استرد جيشه ثانية ، فقرر امرؤ القيس الرجوع إلى بلاده ، ولكن المرض

فاجأه فى الطريق فمات بالجدرى ودُفن بأنقره ، وكان ذلك قبل الهجرة بقرن من الزمان ، قِيل إنه مات سنة ٥٦٥ ، وقِيل أنه مات سنة ٥٤٠م .

شعره فى لهو حياته وجدها:-

قال امرؤ القيس الشعر وهو يعيش عيشة اللهو في التشبيب والفخر والوصف ، وهو يجمع بين هذه الأغراض في كل قصائده ، فهو لا يذكر التشبيب إلاّ لينتقل منه إلى الفخر بنفسه ، ولا ينتهى من الفخر إلاّ لينتقل منه إلى وصف البرق أو السحاب أو المطر أو نحوه من مشاهد بلاد العرب ٠ فلما صار إلى حِد الحياة بعد قتل أبيه قال الشعر في الرثاء والمدح والهجاء والشكوى والحكمة والوصف والتشبيب ، فرثا أباه وقتلى قومه في شعره ومدح بعض من أعانه في المطالبة بثأر أبيه مكافأة له على إعانته له ، وهجا من هجاه في ذلك السبيل أيضًا ، فلم يتكسب في شعره بمدح ولا هجاء ، وكذلك شكا وقال الحكمة والوصف ، وتأثر تشبيبه في هذا العهد بالألم والبكاء على عهد الشباب ، وكان يقدمه في قصائده أمام المدح ونحوه ، وهو يجمع في قصائده أيضًا بين هذه الأغراض ولا تكاد تخلص قصيدة منها لمدح أو هجاء أو غيرها .

*****

منزلته الشعرية:-

كان امرؤ القيس من فحول شعراء الجاهلية ، وعلماء البصرة يجعلونه رأس الطبقة الأولى ، وأهل الكوفة يقدمون عليه الأعشى .

قيل للفرزدق مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : ذو القروح (يعنى امرؤ القيس) .

وفضّله سيدنا على -رضى الله عنه- وكرم الله وجهه على شعراء الجاهلية بأن قال : - رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة .

وقال أبو عبيدة : افتتح الشعر بامرئ القيس ، واختتم بابن هَرْمَة ولا غرو ، فامرؤ القيس أول من رقق ألفاظ التشبيب وفرّق بينه وبين غيره في القصيدة ، وأول من أجاد وصف الخيل والنساء ، واستعمل في ذلك بديع التشبيه والاستعارة ، فكان الشعراء يقولون في المرأة قبله- أسيلة الخد تامة القامة أو طويلتها جيداء أو طويلة العنق - فقال في ذلك -

أسيلة مجرى الدمع ، بعيدة مهوى القرط - وكانوا يقولون في الفرس - يلحق الغزال ويلحق الظليم - فقال في ذلك - بمنجرد قيد الأوابد هيكل وهو أول من استوقف الصحب وبكى على الديار ، وشبه النساء بالظباء والبيض والخيل بالعقبان والعصى ، وهو أول من قيد الأوابد ، إلى غير ذلك مما يذكرونه له ، ولكنهم يأخذون عليه تعهره في تشبيبه ، وتجاوزه حدود العفة والأخلاق ، وكذلك استهجنوه في أشياء سقطت في شعره ، وعدوا عليه ما وقع فيه من جفاء في العبارة ووعورة في الألفاظ ، وتجهم فى المعانى ، وخشونة في التشبيه ، ولكنه قليل لا يذكر بجانب ما أجاد فيه ، وما من شاعر إلاّ وله مأخذ مثل هذه المآخذ ، ولو كان يقول الشعر مثل امرئ القيس وغيره ، لأن الفطرة تتأثر بما يحيط بها في الحياة ، ولا تجرى سليمة من غير أن تتأثر بما يحيط بها ولله الكمال وحده .

والحق أن امرأ القيس يُعَد أبًا للشعر الجاهلى - فقد استوى عنده في صورة رائعة سواء من حيث سَبْقِه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وحسبه إجماع علماء الشعر وقدرته على أنه زعيم الشعراء الجاهليين وأميرهم .

****

من معلقة امرئ القيس في وصف الفرس والصيد والبرق والمطر :-

١- وقد أغتدى والطير في وُكُناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

٢- مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخرحطه السيل من علِ

٣- كُمَيْتٍ يُزل اللِّبد عن حال متنه كما زلَّت الصَّفواء بالمتنزّلِ

٤- على الذبل جياش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حميُه غلىُ مِرجلِ

٥- مِسَحٍّ إذا ما السابحات على الونى أثرن الغبار بالكديد المُركَّلِ

٦- يزل الغلام الخِفُّ عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المُثقَّلِ

٧- دريرٍ كخذروف الوليد أمَرُّه تتابع كفيه بخيط مُوصِّلِ

٨- له أيطلا ظبى وساقا نعامةٍ وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

٩- ضليع إذا استدبرته سدَّ فرجه بضافٍ فويق الأرض ليس بأعزل

١٠- كأن على المتنين منه إذا انتحى مداك عروسٍ أو صلاية حنظل

١١- كـأن دمـاء الهاديـات بنحـره عصـــارة حِنَّـــاء بشـــيب مرجّـــل
١٢- فعنَّ لنـا سـرب كـأن نعاجـه عـــذارى دوار فـــي مـــلاء مـــذيل
١٣- فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيـد مُعَـمٍّ فـي العشـيرة مخـول
١٤- فألحقنـــا بالهاديـــات ودونـــه جواحرهـــا فـــي صـــرَّة لـــم تزيـــل
١٥- فعادى عداء بين ثور ونعجه دِراكًـا ولـم ينضـح بمـاء فيغسـل
١٦- وظل طهاة اللحم من بين منضج صـــفيف شـــواء أو قـــدير معجـــل
١٧- ورحنا يكاد الطرف يقصر دونـه متـــى مـــا تـــرق العـــين فيـــه تســـفل
١٨- فبـات عليـه سـرجه ولجامـه وبـات بعينـى قائمًـا غيـر مُرسـل
١٩- أصاحِ ترى برقًا أُرِيك وميضـه كلمـــع اليـــدين فـــي حبـــيٍّ مكـــلل
٢٠- يضـئ سناه أو مصـابيح راهـبٍ أمـــال الســـليط بالـــذبال المفتـــل
٢١- قعدت لـه وصحبتى بين ضارج وبـــين العـــذيب بعـــدما متـــأملى
٢٢- على قطنٍ بالشيم أيمن صوبه وأيســـره علـــى الســـتار فيـــذبل
٢٣- فأضحى يسح الماء حول كثيفةٍ يكـبُّ علـى الأذقـان دوح الكنهبـل
٢٤- ومر علـى ألقنـان مـن نقيانـه فأنـزل منـه العُصْـم مـن كـل منـزل
٢٥- وتيماء لم يترك بها جزع نخلة ولا أَطُمًـــا إلاّ مشـــيدًا بجـــندل
٢٦- كـأن ثبيـرًا فـي عـرانين وبلـهِ كبيـــر أنـــاس فـــي بجـــاد مزمـــل
٢٧- كـأن ذرى رأس المجيمـر غـدوةً مـــن الســـيل والغثـــاء فلاكـــة مغـــزل
٢٨- وألقى بصحراء الغبيط بعاعَه نـزول اليمـانى ذى العيـاب المحمل
٢٩- كـأن مكـاكى الجـواء غديـةً صَـبُحْن سـلافًا مـن رحيـق مفلفـل
٣٠- كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائـه القصـوى أنـابيش عنصـل

****

موضوع القصيدة :-

هذه الأبيات المختارة من معلقة امرئ القيس التى أولها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ∴ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وتبلغ أبيات هذه المعلقة ٨٢ بيتًا ، وهى بإجماع النقاد من أروع وأبدع الشعر العربى ، ويعدها كثير من الأدباء قمة في الشعر ، والأبيات المقررة من قوله :

وقد أغتدى والطير في وكناتها ∴ بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وهذه الأبيات تحكى فروسية امرئ القيس وتصور شجاعته ومهارته في ركوب الخيل ، ففيها وصف الشاعر فرسه ، وصور سرعته تصويرًا بديعًا ، وتحدث بعد ذلك عن رحلة صيده فوصف سربًا من بقر الوحش اقتنص منه صيدًا ثم أخذ الطهاة يهيئون الطعام له ولرفاقه ، ثم انتقل الشاعر بعد ذلك فوصف البرق والمطر والسيول التى ألمت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء في شمال الحجاز .

وهذه المعلقة قد قالها امرؤ القيس في أيام الشباب ، في المرحلة الأولى من حياته حين كان قلبه خاليًا من هموم الحياة وأثقالها .

اللغة:-

١. الوكنات : جمع وكنة وهى المواضع التى تأوى إليها الطيور • المنجرد : قصير الشعر ، الأوابد : الوحوش وجعله قيدًا لها لأنه يسبقها فيمنعها من الجرى .
٢. الكرّ : العطف يُقال كر فرسه على عدوه أى عطفه عليه ، ومكر : يكر إذا أُريد منه ذلك • الفر : الروغان والهروب • والجلمود : الحجر الصلب .
٣. كميت : الفرس الكميت هو الذى في لونه حمرة ضاربة إلى السواد• الصفواء : الصخرة الملساء • المتنزل : المطر النازل عليها .
٤. الذبل : الضمور • جياش : مسرع • اهتزامه : صوت جريه • حميه : شدة جريه • المرجل : القدر .

٥. مسح : فرس مسح أى جواد يسح العدوّ سحًا مثل سح المطر، السابحات : الخيول المسرعة ٠ الونى : الفتور والتعب ٠ الكديد : الأرض الصلبة ٠ المركل : الذى ركلته الخيل بحوافرها فأثارت الغبار .

٦. يزل : يسقط الغلام عن ظهره من سرعته وشدة عدوه ٠ الخف : الخفيف ٠ صهواته : جمع صهوة ٠ ويلوى : يذهب ٠ العنيف المثقل :الذى لا يحسن الركوب.

٧. درير : دردر دريرًا أى عدى عدوًا سريعًا ٠ خذروف الوليد : الخرزة التى يلعب بها الصبيان يسمع صوتها فهى سريعة المر ٠ وأمرَّه : من الإمرار وهو إحكام الفتل .

٨. الأيطل : الخاصرة ٠ الإرخاء : سير السرحان وهو الذئب ٠ تقريب : قفز ٠ التتفل : الثعلب .

٩. الضليع : فرس ضليع تام الخلق عظيم الأضلاع ٠ استدبرته : نظرت إلى مؤخرته ٠ ضاف : أى بذنب ضاف وهو الطويل ٠ الأعزل : الذى يميل عظم ذنبه إلى أحد الشقين .

١٠. المتنين : تثنية متن وهو الظهر ٠ انتحى : جَدَّ ٠ مداك العروس : الحجر الذى يسحق عليه الطيب لها ٠ والصلاية : الحجر الأملس الذى يدق عليه الحنظل ، وكلاهما يكون صلبًا .

١١. الهاديات : أوائل الصيد والوحش ٠ بشيب مرجل : أى بشيب غسل عنه الحناء فرُجِّل أى سرح بالمشط .

١٢. عَنَّ : ظهر ٠ السرب : القطيع من البقر والظباء ٠ دوار : اسم صنم كانت العرب تعبده في الجاهلية .

١٣. أدبرن كالجزع : تفرقن كالجزع الذى جعل بينه ما يفصله ٠ والجزع : خرز فيه سواد وبياض وذلك أن البقر بيض ألاّ القوائم والخدود ٠ بجيد معم : أى في عنق غلام ٠ معم مخول : أى كريم العم والخال .

١٤. الهاديات : السوابق المتقدمات ٠ جواحرها : اللاتى قد تخلفن أى لحقنا الفرس بالأوائل ودونه المتخلفات ٠ في صرة لم تزيل : في جماعة لم تتفرق .

١٥. عادى عداء : وإلى الجرى • دراكًا : سريعًا أى إدراك صيده • ينضح بماء : أى لم يعرق كأنه قد غُسل بماء .

١٦. الطهاة : الطباخون • الصفيق : شرائح اللحم المرققة • القدير : المطبوخ في القدر.

١٧. يكاد الطرف يقصر دونه : الطرف كل شيء كريم من رجل أو فرس • متى ما ترق العين فيه تسفل : أى متى ما ارتفعت عين الناظر إلى أعلاه فإنها تبادر بالنظر إلى أسفله أى من نظر إلى أسفله لكماله ليستتم النظر إلى جميع جسده .

١٨. بات عليه سرجه ولجامه : أى بات مهيئًا ليرسل في وجه الصبح • بات بعينى : بحيث أراه • غير مرسل : أى غير مهمل .

١٩. أصاح : معناه يا صاحب فرخم كما تقول في ترخيم حارث يا حار• وميض البرق : لمعانه • الحمى المكلل : أى السحاب المتراكم سمى بذلك لأنه حبى بعضه إلى بعض فتراكم .

٢٠. السنا : الضوء • ويضىء سناه أى البرق • السليط : الزيت أى أكثر منه وصبه في الفتيل • الزبال : جمع زبالة وهى الفتيلة .

٢١. له : أى للبرق انظر إليه من أين يجئ • بعدما متأمل : أى تأملته من مكان بعيد • ضارج والعذيب : موضعان .

٢٢. قطن : اسم جبل في ديار بنى أسد • بالشيم : النظر إلى البرق مع ترقب المطر • صوبه : مطره • الستار ويذبل : جبلان أى إذا نظرنا إلى المطر فأيمنه على قطن وأيسره على الستار ويذبل .

٢٣. كثيفة : اسم موضع • يكب على الأذقان : يقلع الأشجار ويكبها على وجهها • الدوح : الشجر العظيم الكثير الورق والأغصان • الكنهبل : بالفتح والضم ضرب من شجر البادية .

٢٤. القنان:اسم جبل لبنى أسد • النفيان : ما يتطاير من قطر الماء• والعصم : أى أعصم وهى تيوس الجبال سُميت عصمًا لبياض في أطراف أيديهن • المنزل : موضع الإنزال أى أن المطر عم هذا الجبل حتى أنزل منه العصم من كل مكان .

٢٥. تيماء : اسم قرية ٠ الأطم : القصر ٠ مشيدًا : متين البناء ٠ والجندل : الصخر ، أى أن هذا السيل لم يترك بيتًا إلاّ هدمه ما عدا ما كان مبنيًا بصخر فإنه بقى سليمًا .

٢٦. ثبير : اسم جبل ٠ العرانين : الأنوف وقد استعيرت هنا لأوائل المطر ٠ الوبل : المطر ٠ البجاد : الكساء المخطط ٠ مزمل : أى ملتف وجُرّتْ كلمة مزمل بالمجاورة لبجاد ، ومثله في قول العرب : هذا جحر ضب خرب لأن القياس يقتضى رفعها لأنها صفة لكبير أناس .

٢٧. الذروة : أعلى الشىء ٠ والمجيمر : أرض لبنى فزارة ٠ والغثاء : ما جاء به السيل من الحشائش والكلأ ٠ والمغزل : بضم الميم أو فتحها وكسرها معروف والجمع مغازل يريد أن يقول : امتلأ المجيمر بالماء فكان الجبل في الماء فلكة مغزل لما جمع السيل حوله من الغثاء .

٢٨. الغبيط : اسم موضع انخفض وسطه وارتفعت أطرافه وسُميت غبيطًا تشبيهًا بغبيط البعير ٠ بعاله :ثقله ٠نزول اليمانى :نزول التاجر اليمانى ٠ العياب : الثياب أى أن هذا المطر نزل بصحراء الغبيط فأخرج من النبات والزهر ألوانًا مختلفة كاختلاف ألوان الثياب اليمانية .

٢٩. المكاكى : جمع مكاكى وهو ضرب من الطير حسن التغريد ٠ الجواء : ما اتسع من الأرض ٠ غدية : تصغير غداة ، صبحن من الصبوح ٠ السلاف : أول ما يُعصر من الخمر ٠الرحيق : الخمر ٠ المفلفل : الذى أُلقيت فيه توابله ، أى أن المكاكى تغرد كأنها سكارى من الخمر.

٣٠. الأنابيش : أصول النبات سُميت بذلك لأنها تنبش أى تخرج من تحت الأرض ٠ العنصل : بصل برى ، شبه السباع الغرقى بما نبش من العنصل .

****

openkanal.com

البيان:-

اشتمل النص على الأفكار الآتية :-

١. سرعة الفرس وصفاته العربية الأصيلة (١ - ١١) .
٢. وصف رحلة صيد (١٢ - ٢٨) .
٣. وصف البرق والسحاب والمطر (١٩ - ٢٥) .
٤. حالة الطبيعة بعد نزول المطر (٢٦ - ٣٠) .

يقول امرؤ القيس في وصف فرسه وبيان محاسنه وصفاته العربية الأصيلة :-

إننى أستيقظ مبكرًا قبل أن تنهض الطير من أوكارها ، وأمتطى جوادى الذى يمتاز بقصر شعره ، وضخامة جسمه ، وسرعته الفائقة التى يقيد الوحوش مهما عدت وأسرعت لأنه يلاحقها ، فلا تستطيع الإفلات منه ، وهذا الفرس مدرب أحسن تدريب ٠ ولشدة حركته وسرعته يخيل لمن يراه أنه يكر ويفر في الوقت نفسه وأنه يقبل ويدبر في آن واحد وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال وأن لبده لشدة حركته ليسقط عنه وينزلق من فوقه كما ينزل من فوق الحجر الصلب الأملس المطر النازل عليه ، وهو فرس ضامر البطن وصوته عندما يجرى كأنه جَيَشَان قدر يغلى ، وهو يفوق غيره من الخيول السريعة ٠ إذ أنها تتعب وتفتر في جريها فتثير حوافرها الغبار لعدم قدرتها ولكثرة ما نالها من الإعياء والتعب ، ولكن فرسه يسح في عدوه سحًا كسح السحاب الغزير ، فهو قادر على مواصلة الجهد دون إرهاق لقوة تحمله ولياقته البدنية ، ولسرعة انطلاقه في عدوه لا يستطيع الغلام الضعيف الثبات عليه ، كما أن الفارس القوى الثقيل الجسم لا يستطيع أن يتمالك أمره فوق ظهره ، والفرس يتابع العدو في خفة وسرعة كالتى تراها في لعبة الخذروف التى يلعب بها الصبى ، كما أنه يمتاز بالرشاقة ، فخاصرتاه ضامرتان كخاصرتى الضبى ، وساقاه طويلتان كساقى النعامة ، وهو يهوى في الأرض كأنه الذئب المفزع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وهو عظيم الضلوع ، قوى الصدر له ذيل طويل ضاف يصل إلى ما فوق الأرض بقليل ، وإذا نظرت إلى متنيه وهو قائم غير مسرح تجدهما تلمعان وتبرقان كأنهما مداك العروس وصلابة الحنظل ويعنى الشاعر من تشبيهه متنيه بهما

وصفهما بالقوة والصلابة والملاسة ، وكأن دماء الصيد والوحوش على نحره عصارة حناء على شعر أشيب مرجل .

وامرؤ القيس حين يخص فرسه بهذه الصفات إنما يقصد من وراء ذلك الإشادة بنفسه وبفروسيته ، لأنه صاحب هذا الفرس الأصيل ، وهو وحده الذى يستطيع ركوبه دون غيره من الفرسان .

ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن صيده ، فيصف سربًا من بقر الوحوش ظهر لهم في الصحراء في أثناء رحلتهم ، ويشبه نعاجه بعذارى يلبسن ملاءات وقد عكفن على صنم " دوار " يعبدونه ويطفن حوله ، وحين رأت بقر الوحوش الصيادين أصابها الزعر والخوف فأخذت تدور حول نفسها حتى اختلطت أنواعها فبدت كالخرز في قلادة حول عنق صبى من سادة القوم ، لكن الفرس لم يترك قطيع البقر يلوز بالفرار ، إذ أدرك في سرعة خاطفة أوائلها وأواخرها ، واستطاع أن يوالى في صيده بين ثور ونعجة في وقت واحد ، وأن يدركها دون عناء أو مشقة دون أن يتصبب العرق من جسمه لأنه جواد قوى ، وبعد أن انتهى الرفاق من صيدهم أوقدوا النيران ، وأخذ الطهاة يعدون لهم الطعام ، فمنهم من يصفف اللحوم على النار ومنهم من يضعه في القدر ليعجل بطبخه .

ثم رجعوا من صيدهم في آخر النهار ، وأبصارهم تكاد تعجز عن استقصاء محاسن هذا الفرس لأنه كامل الحسن رائع الصورة ، وقد ترك الشاعر فرسه لم يرفع عنه السرج بل تركه يبيت طوال الليل مسرجًا ملجمًا قائمًا بين يديه وأمام ناظريه.

ثم انتقل الشاعر من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التى ألمت بمنازل قومه بنى أسد وقد جلس يتأملها ، ويتابع تحركاتها إلى أن أتت أكلها نباتًا وزهرًا يانعًا فيقول :-

يا صاحبى انظر وتأمل البرق الذى يلمع وسط السحب المتراكمة كلمع اليدين حين تتحركان في سرعة ، أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوؤها بما يمدها من زيت كثير ، ثم جلس الشاعر مع رفاقه يتطلعون ويتأملون حركة البرق والسحاب وينظرون إليه فرحين معجبين ، وبالبعد منهم المكان الذى يلمع فيه هذا البرق ، وتتجمع فيه السحب ، لقد بدأ المطر ينهمر على منطقة واسعة من الصحراء تمتد من جبل قطن في نجد إلى جبلىّ الستار

ويذبل عند البحرين وأخذ السحاب يسح مياهه بغزارة تحول معها إلى سيول جارفة بدأت تقتلع الأشجار العظيمة وتكبها على أذقانها ، وقد وصل رذاذ هذا السيل عند جريانه إلى جبل القنان مما جعل الوعول المعتصمة به تترك مواضعها ، وتهرب إلى سواها ، وقرية تيماء لم تسلم من بأسه فلم يترك هذا السيل بها نخلاً ولا بيتًا إلاّ اقتلعه وهدمه ، سوى القصور التى شيدت بالجندل والحجارة فإنها قاومت طغيانه .

ويتحدث الشاعر عن أثر السيول والأمطار فيقول : إن جبل ثبير قد غطته السيول بمائها الغزير حتى صار يشبه شيخًا ملتفًا في كساء مخطط ، أما رأس المجيمر فإن السيل قد أحاط بها ، ودار حولها بما حمله من الغثاء كما تدور فلكة المغزل ، وقد ألقى هذا المطر بصحراء الغبيط ثقله فنشر بها من النبات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التى ينشرها التاجر اليمانى حين يعرضها للشراء ، وينتهى الشاعر بالإشارة إلى هدوء المطر بما وصفه من خروج الطيور وهى تعلن بهجتها وفرحتها من صفاء الجو وصحوه وكأنها من نشوتها سكارى سقيت من خمر الصبوح لاذعًا ، أما سباع الصحراء ووحوشها فقد باتت غارقة في سيول هذا المطر ، وتراءت رؤوسها للعين كأنها جذور البصل البرى المنبوش .

******

أهم الصور :-

يقول النقاد : إن امرأ القيس شاعر الصورة الناطقة ، فهو يقدم الفكرة في صورة سهلة ولكنه يكسوها بالتشبيه الجميل والاستعارة الجيدة ، ويزيد على أطنابها في الحديث عنها حتى يستوفى جوانبها ، وأكثر ما تكون صور امرئ القيس من التشبيه وتزدحم قصائده بكل جميل منها ، وتعطى صورة عن طبع وسجية لا أثر فيها للتكلف ولا الغموض ، وقد عده ابن سلام من أحسن طبقته تشبيهًا ، فتشبيهاته جيدة ، وهى تتراكم في الأبيات ، فقد قدم لنا صورًا تفصيلية متعددة عن فرسه ، وصف فيها أعضاءه وسرعة عَدْوه ومنها : أنه صور لنا الفرس في سرعته وصلابته كأنه جلمود صخر هوى به السيل من قمة جبل عال وهو في عدوه كالقيد الذى يقيد الأوابد ويمنع حركتها ، ولبده يزل عن ظهره كما يزل المطر

فوق الصخر الأملس ، وصوت جريه يشبه صوت غليان المرجل ، وهو في سرعة عدوه أشبه بلعبة الخذروف يلهو بها الصبى .

وامرؤ القيس يفصل القول في وصف أعضاء الفرس ويتحدث عن خاصرتيه وسيقانه وسلامة أعضائه في صورة مادية حسية ، فصور خاصرتيه بخاصرتى الظبى وجعل ساقيه كساقى النعامة ، وعدوه كعدو الذئب ، وجريه وقفزه كقفز الثعلب ، وكأن جانبى صلبه كالحجر الذى يدق عليه الطيب للعروس أو الحجر الذى يُكسر به الحنظل ، وشبه الشاعر دماء الوحوش على عنق هذا الفرس كأنها عصارة حناء صُبغ بها شعر أشيب ، وصور بقر الوحوش مع مالها من ظهور بيض وقوائم سود وهى تمشى وتدور بالفتيات الحسان وهن يطفن بالصنم " دوار " ثم صورهن في نفورهن وتناثرهن بالجزع المفصل في قلادة ثمينة يلبسها صبى كريم الأهل .

ثم ينتقل الشاعر في معلقته إلى وصف البرق والمطر متأثرًا ببيئته الصحراوية ، فيشبه وميض البرق الخاطف بين السحاب المتراكم بلمع اليدين تتحركان في سرعة ، ويمضى شاعرنا في حديثه عن البرق فيصوره في تألقه بالسنا المنبعث عن مصابيح الراهب الذى أمال فتائله يصب الزيت عليها ، ثم يصور الشاعر جبل ثبير في أوائل نزول المطر وقد غطاه الماء الكثير والغثاء الأسود إلى رأسه بشيخ متزمل في كساء مخطط ، ويصور رأس المجيمر وقد أحاط بها السيل ودار من حولها غثاؤه بفلكة المغزل التى تتجمع من تحتها خيوط الغزل ، كما صور صحراء الغبيط وقد ألقى المطر بعاعه وأثقاله فيها فعمها الخصب ونشر فيها من ضروب النبات والأزهار فكان نزوله فيها كنزول التاجر اليمانى إذا جاء محملاً بعياب فيها ثياب ملونة ينشرها أمام الناس ليعرضها على من يريد شراءها .

ثم يصور الشاعر منظر الطيور وهى تعلن فرحتها وبهجتها بهذا الجو البديع بعد أن أقلعت السماء عن المطر وكأنها من نشوتها سكارى سُقيت من خمر الصبوح اللاذع ، أما سباع الصحراء فقد باتت غارقة في سيول هذا المطر وكأنها أصول بصل برى نبشت عنه في باطن الأرض .

والبيت الأول كناية عن صفة البكور ٠ وهذه الكناية ترسم لنا صورة حسية لجو الصباح في صمته وهدوئه ، والبيت السادس كناية تصور لك نشاط الحصان وخفته وحركته ، وهذه صورة طريفة تعتمد على التشبيه المقلوب يقول :-

فعنَّ لنا سرب كأن نعاجه ∴ عذارى دوار في ملاء مذيل

فقد عكس الصورة فشبه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه الشعراء وأصبح ضربًا من ضروب الخيال التى نسجوها .

****

ونستطيع من استقراء هذه الصور أن نلمس ما ياتى:-

١. أنها صورة قريبة لا تحتاج إلى تعمق في فهمها ، وأنها تمتاز بالبساطة والسهولة ، وهذه طبيعة الأدب الجاهلى .
٢. أنها مستمدة من واقعه الحسى ، ومنتزعة من البيئة التى يعيش فيها كما أنها بعيدة عن الإسراف والخيال .
٣. أن الشاعر يأتى بها متتالية في إجمال شديد ، يكاد كل واحد منها أن يكون منفصلاً ٠ ويوردها متتابعة متلاحقة لا تفصيل فيها كاللمحات الخاطفة التى تمر سراعًا وهى فضلاً عن ذلك جميلة كل الجمال ، رائعة كل الروعة .

ومن صور الخيال الجميلة : تلك الصورة التى رسمها لفرسه في أثناء المعركة .

مكر مفر مُقبل مُدبر معًا ∴ كجلمود صخر حطّه السيل من علِ

فهى صورة تتميز بالحركة وخفة الفرس وسرعته في إقبال وإدبار وتشترك الألفاظ نفسها بحركتها وموسيقاها وإيحائها وجرسها في رسم الصورة الحية المتحركة للكر والفر والإقبال والإدبار .

تعليق ونقد

هذه الأبيات من معلقة امرئ القيس التى حظيت بمكانة مرموقة بين سائر المعلقات ، حيث اعتبرها النقاد أفضل وأبرز أثر للفصاحة العربية في العصر الجاهلى ومطلعها :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ∴ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد عد الشعراء هذا المطلع من مبتكرات امرئ القيس ٠ إذ وقف واستوقف وبكى وأستبكى وذكر الرفيق والحبيب والمنزل ٠٠٠

وتُعد هذه المعلقة في جملة أغراضها ومعانيها وصورها المثال الذى احتذاه الشعراء بعد امرئ القيس وجعلوه بذلك أميرهم ، والمقدم عليهم بلا منازع .

والأبيات المختارة تحدث فيها امرؤ القيس عن نشاطه وفروسيته وخروجه مبكرًا راكبًا جواده الذى يمتاز بالخفة والسرعة ويذكر ما دار في رحلة صيده من الظفر بما أراد من قطيع البقر الوحشى ، وقيام الطهاة بالطبخ والإعداد وتهيئة الطعام ، ثم انتقل الشاعر إلى الحديث عن وصف البرق والسحاب والمطر ومظاهر الطبيعة في الصحراء وقد وصف الشاعر كل ذلك وصفًا يدل على عنايته بهذا الفن ، وقدرته عليه فقد أجاد وأفاد في وصفه للفرس والصيد .

وقد قال عنه القدماء : إنه أشعر الشعراء إذ ركب ، كما رسم لنا صورة بارعة لمنظر الصحراء وحيواناتها ومظاهرها وقد غمرها المطر الغزير .

وقيل :إن امرأ القيس أشعر الشعراء الذين وصفوا الغيث :-

والأبيات من الشعر الجيد الرصين ، وتمتاز بضخامة اللفظ ، وقوة الأسلوب وبلاغة العبارة ومتانة التراكيب ، وجودة السبك وفخامة النسج وفصاحة القول ، وجمال الصياغة التى تجعل صاحبها في عداد كبار الفحول من الشعراء الذين لا يجود الزمن بمثلهم إلاّ قليلاً.

والألفاظ تتناسب مع معانيها ليـًا وشدة ، فحين صور الشاعر المطر عنيفًا كاسحًا جارفًا يقلب الأشجار الضخمة العالية رأسًا على عقب استخدم الألفاظ : يسح ويكب والأذقان والدوح ، والكنهبل ...

وعندما هدأ المطر وخفت حدته استعمل الألفاظ : مر ، أنزل ، نفيانه ، صبحن ، سلافًا ... وإذا كانت بعض الألفاظ قد اتسمت بصفة الغرابة والخشونة فإن ذلك يرجع إلى خشونة الحياة وقسوة الطبيعة وتأثر الشاعر بمظاهر الغلظة والقوة في الطباع ونظام الحياة ، كما أنه لطول العهد بيننا وبين الجاهليين تبدو لنا هذه العورة ، فإذا عرفناها من المعاجم ، ودارت على الألسنة أصبحت عادية مألوفة.

والمعانى التى وردت في الأبيات واضحة لا غموض فيها ولا تعقيد مستمدة من البيئة العربية ومظاهرها الحسية ، فلا أثر فيها للتعمق ولا للفلسفة ، كما أنها قريبة التناول وتتسم بالبساطة والصدق .

والقصيدة حافلة بألوان الخيال ، والتشبيه من أكثر الأدوات التى استعان بها الشاعر على تصوير مشاهده ، ونقل إحساسه ، وقد اشتملت الأبيات على بعض الصور التى تكاد تكون فريدة ، ومن ذلك ما أعجب به النقاد من قوله :-

وقد أغتدى والطير في وكناتها ∴ بمنجرد قيد الأوابد هيكل

فقد قالوا : إن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد .

وقال ابن رشيق : أنه أول من فتح باب تشبيه أربعة بأربعة في بيت واحد مثل قوله :-

له أيطلا ظبى وساقا نعامة ∴ وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقال خلف الأحمر : لم أر بيتًا أفاد وأجاد وزاد أفضل من بيت امرئ القيس السابق • ومن مخترعات امرئ القيس قوله :-

فاضحى يسح الماء حول كثيفة ∴ يكب على الأذقان دوح الكنهبل

وقد اقتدى به الشعراء في عصره ، واتبعوا أفكاره وصوره إعجابًا بشعره وتأثرًا به .

قال امرؤ القيس في وصف فرسه :-

كميت يزل اللبد عن حال متنه ∴ كما زلت الصفواء بالمتنزل

قال أوس بن حجر متأثرًا به :-

يزل قنود الرحل عن دأباتها كما زل عن عظم الضحيح المحارف

وقال أوس بن حجر متأثرًا به في وصف البرق :-

فيالبرق أبيت الليل أرقبه فـ ∴ ـى عارض كبياض الصبح لماح

دانٍ مسفٍ فويق الأرض ميدته ∴ يكاد يدفعه من قام بالراح

كأنما بين أعلاه وأسفله ∴ ربط منشره أو ضوء مصباح

وتحدث امرؤ القيس عن سرعة فرسه فقال :-

دريـر كخذروف الوليد أمره ∴ تتابع كفيه بخيط موصل

وتأثر به زهير بن أبى سلمى في وصف بقرة وحشية فقال :-

بملتئمات كالخذاريف قوبلت ∴ إلى جوشن خاظى الطريقة مسند

وأبيات القصيدة لا تلم بموضوع واحد ، بل تجمع طائفة من الموضوعات وتتناول أكثر من قضية شأنها في ذلك شأن أكثر القصائد العربية التى وصلت إلينا ولذلك لا تتوافر فيها الوحدة العضوية التى تقوم على وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى كما نعرفها اليوم في النقد الحديث .

والقصيدة مجموعة من الخواطر المتناثرة ساقها الشاعر على فترات متباعدة لكل واحدة منها جوها النفسى ، وتسلسلها المستقل وما أشبه القصيدة عند شاعرنا بفضائه الواسع الذى يضم أمورًا متباعدة تقع عليها عينه في وقت واحد .

ولهذا نستطيع أن نقدم أو نحذف بيتًا دون إخلال بالمعنى ٠ فالبيت هو وحدة النقد وليست القصيدة .

****

آراء النقاد في شعره:-

امرؤ القيس من الشعراء الفحول في العصر الجاهلى وعلماء البصرة يجعلونه رأس الطبقة ، أما أهل الكوفة فيقدمون عليه الأعشى وعلماء الحجاز يقدمون عليه زهيرًا والنابغة ولكن معظم الآراء تشهد له بالتقدم والسبق والريادة .

فقد فضله سيدنا على -رضى الله عنه- على شعراء الجاهلية بأن قال : رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة ، ومر لبيد بالكوفة ، فسأله أهلها ، من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضليل يعنى امرأ القيس .

وسُئل ذو الرُمَّة عن أى الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟

فقال : امرؤ القيس .

وقالت طائفة من النقاد : الشعراء ثلاثة : جاهلى وإسلامى ومُوَلَّد .

فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز.

ويقول القاضى أبو بكر الباقلائى المتوفى سنة ٤٠٣هـ : أنت لا تشك في جودة شعر امرئ القيس ولا ترتاب في براعته ولا تتوقف في فصاحته وتعلم أنه قد أبدع في طرق الشعر أمورًا اتُّبِعَ فيها من : ذكر الديار والوقوف عليها وما يتصل بذلك من البديع الذى أبدعه والتشبيه الذى أحدثه والمليح الذى نجده في شعره .

وهو صاحب أوليات في الشعر ، فإنه أول من وصف الفرس بقيد الأوابد وأول من شبه المرأة بالظباء والمها والبيض ، وأول من أجاد القول في استيقاف الصحب فوقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الأحبة والديار ، وأول من رقق النسيب ، وقرب مآخذ الكلام وجَوّد الاستعارة ونَوّع التشبيه .

وقد عاب النقاد بعض الأبيات عند امرئ القيس ، واتهموه بمخالفة القواعد النحوية في مثل قوله :-

كأن ثبيرًا في عرانين وبله ∴ كبير أناس في بجاد مزمل

فقالوا أن كلمة " مزمل " جاءت مجرورة وحقها أن تكون مرفوعة لأنها صفة لقوله " كبير أناس " .

وقد رد آخرون بقولهم إن رفع كلمة " مزمل " يجعل في البيت الأول إقواء لأن الكسر في حركة الروى ، وتأولوه فقالوا إن كلمة " مزمل " مخفوضة على الجوار وقد ورد هذا في كلام العرب في مثل قولهم : " هذا جحر ضب خرب " وأخذ بعض النقاد على امرئ القيس اضطرابه في ترتيب ألفاظه ومعانيه في مثل قوله :-

أحار ترى برقًا أريك وميضه ∴ كلمع اليدين في حِبىً مكلل

يضيئ سناه أو مصابيح راهب ∴ أمال السليط بالزبال المفتل

وسحاب متراكم وأنه يضئ سناه ٠ ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب .

صلة النص بالبيئة:-

الأبيات المختارة مرآة انعكست عليها مظاهر الحياة الجاهلية وظهرت هضابها وجبالها وسحبها وأمطارها وصنوف المعيشة فيها ، فظهرت بأسماء الأماكن : " ضارج ، العذيب ، قطن ، الشيم ، الستار ، يذبل ، تيماء ، جبل المجيمر ، صحراء الغبيط " .

كما أن فيها ذكرًا لبعض النباتات الصحراوية مثل : " دوح الكنهبل والعنصل وهو البصل البرى " وظهرت فيها حيوانات البيئة : " كالذئب والثعلب ، والظبى ، والنعامة وبقر الوحش " .

وصورت الأبيات عادات المجتمع الجاهلى وتقاليده : " كشرب الخمر وخضاب الرأس ، والطواف بالأصنام " وقد كان من عاداتهم كما ورد في الأبيات السابقة ما يأتى:-

١. أن الرهبان كانوا أشهر الناس بإيقاد المصابيح وإشعالها .
٢. أن لباس الأغنياء وكبراء القوم كان هو العباءة المخططة .
٣. كما أن تجار الأقمشة كانوا يرتحلون في بيعها من مكان إلى آخر في الأحياء والقبائل ، وأن اليمنيين هم الذين اشتهروا بهذه التجارة .

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه ∴ نزول اليمانى ذى العياب المحمل

كما أن العرب كانوا يستخدمون المغازل يغزلون عليها الخيط .

كـأن ذرا رأس المجيمـر غـدوةً ∴ من السيل والغثاء فلكة مغزل

وهكذا تفيض الأبيات بوصف كل ما وقعت عليه عين الشاعر من مظاهر الطبيعة في البادية .

وصورت معالم البيئة الجاهلية ، ووقفت بنا على عادات العرب وتقاليدهم وأحوالهم .

القصص إما هو في سموه وإعجازه لا تدانيه أية فصاحة أو أى بيان صدرا عن الناس ٠٠ ويكفى أن يتدبره المتدبرون ويعقله القارئون والسامعون ، ليجدوه كما قال منزله " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير " [1] .

****

١- سورة هود ، الآية ١ .

openkandl.com

ثالثا : مع الحكمة في شعر زهير

لا خلاف بين أئمة الشعر ونقدته في أن زهيرًا أحد الثلاثة الفحول المقدمين على الشعراء - جميعًا - في الجاهلية ، وكثير منهم يقدمه على صاحبيه :- امرئ القيس والنابغة الذبياني - وحجتهم فى ذلك أنه يمتاز بالإيجاز ، وحذف فضول الكلام ، وصدق المدح ، وتجنب الكذب ، والبعد عن حوشى الألفاظ وغريبها ، وخلو شعره من السقط والسخف والهزر .

أما الحِكَم فإنه كان فيها الفارس المجلى إلى حد أنهم يعتبرونه ممهد السبيل فيها لمن جاء بعده من شعراء العصور المتلاحقة كأبى العتاهية ، وأبى تمام والمتنبى والمعرى ... ومن حكمه قوله في معلقته :-

١- وأعلم علم اليوم والأمس قبله
ولكننى على علم ما في غد عمى [١]

٢- رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطئ يُعمَّر فيهرم [٢]

٣- و من يجعل المعرف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يُشتَمِ [٣]

٤- ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم [٤]

٥- ومن يوفِ لا يُذمَم ومن يهد قلبه
إلى مطمئن البر لا يتجمجم [٥]

١-عمى : أعمى ويعنى به فاقد البصيرة .
٢-الخبط : السير على غير هدى . والعشواء التى تنظر بعين واحدة تسير فى ضوئها فتضل . يعمر : يعش طويلاً .
٣-يفره : أى يصونه .
٤- يذمم : بفك الإدغام أى يذم : يريد أن يقول : " أحسن لى الناس أن تستعبد قلوبهم " .
٥- لا يتجمجم : أى لا يتردد .

openkandil.com

٦- ومـــن هـــاب أســـباب المنايـــا ينلنـــه
وإن يـــرق أســـباب الســـماء بسُـــلّم [١]
٧- ومـن يجعـل المعـروف فـي غيـرأهلـه
يكـــن حمـــده ذمّـًا عليـــه وينـــدم [٢]
٨- ومـــن لا يـــذد عـــن حوضـــه بســـلاحه
يُهـــدّم ومـــن لا يَظلـــم النـــاس يُظلـــم [٣]
٩- ومهمـــا يكـــن عنـــد امـــرئ مـــن خليقـــة
وإن خالهـــا تخفـــى علـــى النـــاس تعلـــم [٤]

لقد كانت حكمة زهير هذه نبعًا من عقله ، وفيضًا من تجاربه ، وصدى مرددًا لخبرته للناس ، وعلمه بالحوادث ، ومعاصرته للأيام ، وسيره في ركاب الزمن الذى لقن الملهمين ، وعلم المتقدمين ... وهذه الأبيات هى من معلقته ، التى سارت مسير الشمس .

- وموضوعها - كما عرفنا - الصلح بين عبس وذبيان ، وإن كان قد أتى فيها بما يتنافى مع هذا الصلح كقوله:"ومن لا يذد عن حوضه- البيت " وقوله : " سئمت تكاليف الحياة - البيت " .

وفي هذا النص روح الجاهلية وبداوتها ، فيه من الطابع الجاهلى ، سذاجة الفهم والتصور لحقائق الأشياء ، ويتجلى هذا واضحًا في حديث زهير عن الموت وأنه يجئ إلى الناس خبط عشواء ، فلا حكمة ولا تدبير يجئ إلى فلان فيميته ، ويخطئ الطريق إلى فلان فيعمر ويهرم ، ويتجلى كذلك في دعوته إلى تخصيص الأهل بالمعروف ، ونحن نعرف أن شعار الإسلام وضع المعروف في كل موضع ، والبدء بوضعه في الأهل ، ثم وضعه بعد ذلك في غير الأهل على قدر الإمكان ، كما يتجلى كذلك في دعوته إلى حمل السلاح دائمًا للدفاع عن الشرف ومفاخر القبيلة . فلا قانون ولا نظام ولا حكومة ، بل إنه يؤكد أن من لم يسالم الناس يظلموه وهذا خلاف دعوة الجليل ، شعار السلام والتعاون والوئام والمحبة .

---

١ - أسباب السماء التى توصل إليها .
٢ - يريد أن يقول اختر لمعروفك من يحفظه ، ولإحسانك من يُجدى فيه .
٣ - يذد : يدفع وفيه دعوة الى القوة .
٤ - الخليقة : الخلق والمعنى مهما تبطن تظهره الأيام .

obeikandl.com

أليس ذلك طابعًا معروفًا للعصر الجاهلى الذى يبعد عن شعار الإسلام ودعواته المثلى الكريمة .

ويدل كذلك على الطابع الجاهلى قوله : " وإن يرق أسباب السماء بسلم " وكأن الشاعر يفهم أنه قد يتصور أن يرقى إلى السماء بسلم .

والأسلوب أيضًا يرشدنا إلى أننا أمام نص جاهلى ، فالمفردات وطرق تأليفها ، وكذلك المعانى وعدم ترتيبها ، واستعداد هذه المعانى من طريق التجربة لا من طريق الثقافة والتعقل والفهم لحقائق الحياة ونواميسها الصالحة ٠كل ذلك يرشد إلى أن النص جاهلى ، ويرشد إلى أسلوب زهير الشاعر البدوى الجاهلى الذى يشتق تعابيره من روح البادية وجزالتها مثل : خبط عشواء ، يفره ، لا يتجمجم ، يهدم ٠٠٠الخ .

جملة مغزى حكم زهير هذه هى:-

١- الإنسان يقف أمام لغز الحياة حائرًا ، فهو يعلم الحاضر والماضى ، ولكنه يعمى عن معرفة أحداث المستقبل .

٢- الموت هذا اللغز الكبير إنه يخبط في الناس خبط عشواء ، من يقصده مات ومن أخطاه عمر حتى يهرم .

٣- الإنسان يجب عليه أن يعرف طبيعة الناس ، إنه إذا بذل لهم المعروف ليحفظ به عرضه منهم صان عرضه ومجده ، وإن أساء معاملتهم ، ومنع نفعه لهم ، أو شتمهم ، شتموه وأهانوه .

والمقابلة بين الشطر الأول والثاني مقابلة لا تعتمد على منطق ، مقابلة اتفاقية محضة بعيدة عن التفكير ، وحقائق العقل ، إنها مقابلة يدوية غريبة .

٤- إن الرجل الغنى الذى لا يبذل ماله لأهله بخلاً وشحًا يستغنى عنه أهله ويذمونه .

٥- الذى يحافظ على الوفاء بعهوده لا يناله ذم ، ومن يهتد إلى طريق البر والخير لا يتردد في سلوكه ، وكأن زهيرًا مع الذين يقولون : إن المعرفة هى الفضيلة فكل من عرف الخير لابد أن يسلك طريقه !!

٦- الذى يتقى الوقوع في أسباب الموت لابد أن يدركه الموت وإن صعد إلى السماء بمعارج ، والفرق بعيد جدًا بين كلام زهير وحكمة القرآن الكريم الخالدة :

" أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة " .

٧- إن الذى يضع المعروف في غير أهله ينقلب حمده ذمًا عليه ويصبح نادمًا ٠٠ وكأنه يدعو إلى تخصيص المعروف فى الأهل والعشيرة .

٨- الذى لا يحمل السلاح دائمًا ليدافع به عن شرفه ومجده يهدمه الناس ومن لا يظلم الناس ظلمه الناس ، وهو هنا يدعو إلى القوة التى دعا إليها " نيتشه " في العصر الحاضر ، ولكن الإسلام يدعو إلى الحق والعدل والإحسان ، وفرق بين شعار القوة ، وشعار " الحق والعدل والإحسان " .

٩- الرجل مهما أخفى طباعه وأخلاقه ، وظن أن الناس تجهل ذلك كله لابد أن ينكشف أمره للناس قريبًا أو بعيدًا .

كل هذه الأفكار الصحيحة منها والخاطئة تمثل لنا تفكير الجاهليين ، تمثل عقلية زهير ، وتمثل شخصيته كذلك فى وضوح لا لبس فيه .

وكان زهير شاعرًا مجيدًا معدودًا من فحول الشعراء في الجاهلية ، وكان النقاد يضعونه مع امرئ القيس والنابغة والأعشى في طبقة واحدة هى الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، وكان الذى بلغ به إلى هذه المنزلة الكبيرة في الشعر ، ووثق أسباب شاعريته عدة أسباب منها :

أولاً : هذه البيئة العربية البدوية الشاعرة .

ثانيًا: تلك النهضة الأدبية في الشعر التى كانت تموج بها نَجْد والقرى العربية في عصر زهير.

ثالثًا : وراثته الشعر عن أسرته ، فقد كانت أسرته من آبائه وذريته من المجيدين في الشعر قالوا : " لم يتصل الشعر في أهل بيت من العرب كما اتصل في بيت زهير " فأبوه وأحفاده وأخته الخنساء كلهم من الشعراء المجيدين .

رابعًا : اشتراك زهير في الملاحم الحربية في الجزيرة العربية ، وفي حرب داحس والغبراء ٠ والحروب تثير الشاعرية ، وتهيج الخيال ، وتحرك الشعور وتبعث على الكلام .

خامسًا : المنافسات الأدبية بين والشعراء المعاصرين له كانت سببًا أيضًا من أسباب نضوج شعره وشاعريته .

سادسًا : قصد زهير بشعره إلى المدح كان يدفعه إلى الإجادة والتهذيب في شعره ، مما رفع من مكانته ، وقوى أسباب الرغبة في نفسه وشاعريته .

● تحليل النص

أولاً : من حيث الألفاظ :-

زهير يختار ألفاظه اختيارًا ، ويبالغ في اختيارها بذوقه وفطرته الأدبية ٠ وقد يسرف في الغرابة حيًنا ، ولكنه لا يخلو أغلب شعره من سهولة في اللفظ حينًا ، وجزالة وقوة غالبتين عليه أحيانًا .

ثانيًا : من حيث الأسلوب :-

أسلوب زهير من أساليب الشعراء المجودين المصنعين في شعرهم ، وأنتم تعلمون أسلوب زهير في الروية وتهذيب الشعر وتنقيحه للوصول به إلى منزلة الكمال الفنى في النظم وإدراكًا للمنزلة السامية بين الشعراء ٠٠٠ ومذهب الروية في شعر زهير واضح كل الوضوح في جميع قصائده ، ويتجلى في عدة مظاهر في أسلوب زهير : من إمعان في تنقيح الأسلوب ونفى كل ما يُعاب به ، وإسقاط كل ما يؤخذ عليه ، ومن إدخال الرونق والبهاء والجمال على كل بيت من أبيات قصيدته ، ومن قصد للسهولة والوضوح والإمتاع واللذة الفنية التى تبعث على الإعجاب والروعة والتأثر .

ويغلب على شعر زهير ألوان كثيرة من الصنعة ، يُدخلها فيه : من استعارة وتشبيه وكناية وطباق ، ولكن هذه الألوان الفنية تجئ في شعره عفو القريحة ، من غير قصد إليها وتكلف فيها وغلو في طلبها : وإنما تنبعث من ذوق الشاعر وموهبته وروحه الصَنّاع الموهوب.

وهذه الخصائص التى امتاز بها أسلوب زهير كانت هى السبب الأهم في تقديم كثير من النقاد له ٠ ويجمع أغلبهم على وصف أسلوبه بالخلو من التعقيد والتكلف ، وبالسهولة والوضوح في قوة وجزالة ، وعلى أى حال فأسلوب زهير ينبع من شاعريته

وملكاته ، يمثل مذهبه في الصنعة التى اشتهر به ، والذى أخذه عنه تلاميذه من أمثال : الحطيئة وكعب ابن شاعرنا زهير .

ثالثًا : من حيث المعانى :-

معانى زهير - كما قلت - تنبع من نفسه ، وتصدر عن حسه ، وتتصل بمظاهر البيئة في حياته ، لا يمعن فيها في طلب المحال ، ولكنه يعمد إلى الصدق ، فإذا بالغ في أداء المعنى اختار طريق المبالغة المقبول فقال مثلاً:-

فلو كان حمدٌ يُخلد الناس أخلدوا ∴ ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وإذا أراد أن يجود في المدح اختار ما هو أليق به وأقرب إلى ذوق الناس في عصره : من وصف ممدوحه بالبطولة والشجاعة والعفة والنائل الكثير ، والتهلل عند ورود العفاة ، ولكنه لا يزعم أبدًا أن ممدوحه فعل المعجزات وصنع المستحيلات ونال قدرته السموات ، كما يزعم المحدثون من الشعراء ، وتشيع في معانى زهير الحكمة الصادقة ، والتجربة الصحيحة ، والخبرة الواعية بالحياة وأحداثها ومشكلاتها ... ومن ثم عُدّ من شعراء الحكمة في العصر الجاهلى .

رابعًا : من حيث الأغراض الشعرية :-

١- حرص زهير على تسجيل بعض مآثر سادات العرب الذين كان لهم مكان مرموق في الحياة الجاهلية ، وأثر واضح في فض مشكلات الحرب بين قبائلها .

٢- الوفاء الذى طبعت عليه نفس زهير وشدة تأثره بأيدى ممدوحه عليه .

٣- اعتزازه بمفاخر القبيلة ، ومجدها ومآثرها ، مما كان يدفعه إلى مدح قومه .

٤- اتصاله بهرم وتوالى أيادى هرم عليه ، كل هذه الأسباب جعلته جيد المدح ولذلك قالوا : " كان أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب والنابغة إذا وهب والأعشى إذا طرب " ، ويقصدون من ذلك أن أجود شعر امرئ القيس كان في وصف الخيل والصيد ، وأجود شعر زهير كان في المدح ، وأجود شعر النابغة كان في الاعتذار وأجود شعر الأعشى كان في وصف الخمر .

خامسًا :تجويد زهير :-

اشتهر زهير بالتجويد في شعره والروية فيه ، والأناة في نظمه ، وبخاصة مطولاته ، كالمعلقة المشهورة .

وتظهر أناته وهدوءه في رزانة تفكيره وتخيره للمعانى التى تناسب الموضوع الذى يأخذ فيه ، ثم انتخاب الألفاظ التى يستخدمها للتعبير ، والتى يصور بها الرفق حين يريد أن يكون رفيقًا ، أو الشدة حين يريد أن يكون شديدًا ... وقد قالوا إنه كان ينظم قصيدته في شهر ، ويعرضها بعد ذلك على خواص إخوانه عرضًا يستغرق عامًا كاملاً ، حتى إذا اطمأن إلى أنها خالية من المطاعن ، أعلن للناس ميلادها ، ولذلك سميت قصائده الحوليات ، وكما كان لزهير الطوال من القصائد ، كانت له المقطوعات الصغيرة ، وإن كان جيدًا على الجملة ، فإن أكثره جودة ، وأحسنه صياغة ، وأروعه بيانًا ، ما كان منه في هرم بن سنان .

وعلى الجملة فإن الحديث عن زهير بن أبى سلمى حديث عن الشعر الجاهلى في طور تهذيبه أو في مرحلة من مراحل نضوجه ، وفترة من فترات نموه ، وخطوة واسعة من خطوات تقدمه وازدهاره ، لأن الملامح التى بدت فيه ، والصفات التى ظهرت عليه ، والجهود الجبارة التى بذلها جهود كلها تجعل زهيرًا في الخالدين . ولقد صدق عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- عندما سأل ابن زهير : هل بليت الحُلَل التى كساها هرم أباك؟ فقال له : بليت ، إذ قال له : ولكن الحلل التى كساها أبوك هرما لم تبل .!

والحكمة غرض كبير من أغراض معلقة زهير الرائعة ، وهو غرض أصيل كانت تدعو إليه طبيعة دعوة زهير في معلقته ، هذه الدعوة التى نادى بها زهير ودعا إليها من أجل السلام والصلح بين المتحاربين .

كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان تؤرق زهيرًا وتضنيه ، وتثير شاعريته ، ولما سعى هرم بن سنان والحارث بن عوف المُرِّيان في الصلح وحقن الدماء وتحملا ديات القتلى ، أنطلقت تلك المأثرة زهيرًا ، فنظم معلقته هذه يمدح هذين السيدين ،

وينوه بعملها الجليل ويدعو إلى السلم وينفر من الحرب ويصف مآسيها وآلامها ، وهى قصيدة رائعة ، تمتاز بحكمها الكثيرة ، وكان زهيرًا ذا حكمة في شعره .

وقد بدأ معلقته بذكر الأطلال وزيارته لها ووقوفه فيها من بعد عشرين عامًا طوالاً يتذكر ذكريات حبه ووفائه ، وقال :

امن أم أوفي دمنة لم تكلم ∴ بحومانة الدراج فالمتثلم [1]
وقفت بها بعد عشرين حجة ∴ فلأيًا عرفت الدار بعد توهم
فلما عرفت الدار قلت لربعها ∴ ألا أنعم صباحًا أيها الربع وأسلم

ثم يصف النساء اللاتى ارتحلن عنها فيتبعهن ببصره كئيبًا حزينًا ، ويصف الطريق التى سلكنها ، والهوادج التى كن فيها ، والمياه التى كن نزلنها ، في عذوبة وسهولة وجمال ٠ ثم ينتقل إلى مدح هرم والحارث والإشادة بمنقبتهما الكريمة في إنقاذ السلام وإطفاء الحرب بين عبس وذبيان وتحملهما ديات القتلى من مالهما ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير .

ثم ندد بالحرب ووصف فظائعها ، ودعا إلى السلم وأكده وأوجبه على المتحاربين .

ونصح قومه بأن يبقوا على السلم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ثم ينتقل من هذا المجال الرهيب مجال النصح والتوجيه وتأكيد السلام ، إلى مجال الحكمة الإنسانية العامة ، حكمة الرجل المجرب للحياة الذى ذاقها وخبرها ، وعاش في خضمها ، ثم امتد به العمر فزهدها وانصرف عنها حين قال :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ∴ ثمانين حولاً لا أبًا لك يسأم
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ∴ ولكننى عن علم ما في غد عم

ومن ذلك نرى أن الحكمة أحد أغراض ثلاثة أصيلة تدور حولها المعلقة ، وترى وحدة القصيدة في المعلقة ظاهرة لا خفاء فيها ، في غرض واحد ، وفكرة متكاملة ٠٠٠ وشاعرية الشاعر فيها لا يدب إلى جانب من جوانبها اضطراب أو تعقيد أو غموض .

١- الدمنة : ما بقى من آثار الدار ٠ الدراج فالمتثلم : موضعان ، والحومانة : القطعة من الرمل.

الصياغة الشعرية عند زهير :-

(أ) علمنا نبا صنعة زهير في قصائده ، هذه الصنعة المجردة المحبرة الجميلة . ومع ذلك لم يخل الشاعر من أخطاء عدها عليه النقاد :-

١- ففى البيت الأول من جملة أبيات الحكمة التى ذكرناها قال النقاد أن كلمة " قبله " زيادة لا تفيد فائدة فهى تطويل مخل ، وما فائدة وصف الأمر بأنه " قبل " ، وهو لا يكون إلاّ كذلك .

٢- وفي البيت الثاني علمتَ ما في وصفه للمنايا وهو قوله " خبط عشواء " من الجهل والبداوة والحمق ، بل إن البيت كله يمثل الخطأ الواضح في الفهم والتصور.

٣- وفي البيت السادس نجد حديثه عن الرقى إلى السماء بسلم ، يمثل غباء الجاهلية وقصور فهمها وسذاجتها .

(ب) وفي القصيدة من ألوان البيان ما يلى :-

١- قوله : عَمِى في البيت الأول يريد جاهل فاستعار العمى للجهل ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

٢- تشبيهه في البيت الثاني المنايا بالناقة التى لا تبصر بالليل ، فهى تخبط خبط عشواء تسير كما يتفق ، تخبط يسارًا، دون اهتداء إلى الطريق - تشبيه غير مصيب .

٣- ومن هاب أسباب المنايا ينلنه أى من حاذر من أسباب الموت تناله هذه الأسباب : فى إسناد الفعل (ينال) إلى ضمير الأسباب الذى هو الفاعل مجاز عقلى علاقته السببية ، أى يناله الله بإحدى هذه الأسباب أو بسببها .

٤- في البيت الثامن ذكرًا لحوض ، وهو في اللغة حوض الماء ، وأراد به هنا العِرْض والشرف ومجد الآباء وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية حيث شبه العرض - والشرف - بحوض الماء الذى تُستقى منه القبيلة في الصحراء في وجوب الدفاع عنهما .

(ت) في أساليب الشاعر فى أبياته (مساواة) أى أداء المعنى بعبارة تساوى المعنى فلا زيادة فيها ولا نقص ، وذلك باب من أبواب البلاغة .

(ث) وفي البيت الأول طباق بين اليوم والأمس . أو قل مراعاة النظير بين الأمس واليوم والغد وفي الثانى طباق بين " تصب " و" تخطئ "وفي السابع طباق بين الحمد والذم .

وبعد ، فهذا كله يمثل لنا زهيراً وبلاغته وشاعريته تمام التمثيل .

****

obeikandl.com

رابعًا: طرفة بن العبد " الصغير اللاهي "

نشاته وحياته:-

هو عمرو بن العبد بن سفيان البكرى ، وطرفة لقب غلب عليه لقوله:-

لا تعجل بالبكاء اليوم مطرفًا ∴ ولا أميريكما بالدار إذا وقفا

أحد فحول الشعراء الجاهليين من بنى بكر بن وائل ، وقبيلة بكر كانت من القبائل العربية التى اشتهرت بالمجد والسيادة في الجاهلية وكانت تنافس أختها " تغلب " في الشرف والسؤدد .

وقد نبغ من قبيلة بكر شعراء كثيرون منهم الحارث بن عباد راس بكر وشاعرها في زمانه والحارث بن حلزة ، والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر وعمرو بن العبد الملقب " بطرفة " .

نشا في حسب وعدد كثير وبيت بالشعر ، فأمه وردة أخت جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمس ، وهو شاعر معروف وأخته لأمه أو لأبيه الخرنق شاعرة أيضًا ، فقال طرفة الشعر وهو صغير لا يبلغ العشر ، وكان من أحدث الشعراء سنًا في عصره ، وقد أكسبته نشأته في حسبه الكريم جرأة على قومه وغيرهم ، فكان يهجوهم في شعره ويهجو غيرهم من الأشراف والأمراء .

ولكن الدهر جار عليه ، حيث فوجئ وهو طفل صغير بموت أبيه وكان لهذا الأثر في حياته وسلوكه وفي شاعريته ، فتولى ، فتولى أعمامه أمر تربيته ورعايته .

الطفل اللاهى:-

ما كاد طرفة يفتح عينيه للحياة حتى أخذ يسرف على نفسه في شرب الخمر ، واقتناص اللذات ، فسكر وشرب الكأس حتى أدى به الأمر إلى فقد كل ماله وحاول أهله نصحه وإرشاده ولكنه لم يرتدع وأمعن في الإسراف على نفسه حتى اضطر قومه إلى طرده وتحامته عشيرته ، ونفر منه أولياؤه ، فركب ناقته وأخذ يضرب في البلاد وينتقل بين الأحياء تارة يغزو ، وتارة يأوى إلى مغاور الجبال حتى بلغ أطراف الجزيرة العربية .

opelkandi.com

وبعد أن ذاق طرفة مرارة الحرمان ، وقاسى آلام الغربة والتشريد عاوده الحنين إلى ديار قومه ، فرجع إلى أهله وعشيرته ، وفي عزمه أن ينقاد لأوامرهم ، ويستجيب لنصائحهم ، ويعيش آمنًا مستقرًا بين الأهل والأصحاب .

ولكن هذه النفس الحائرة ، لا تستطيع أن تستقر على حال ، أو ترضى بوطن أو تطمئن إلى صديق ، ولعل سبل العيش قد ضاقت مذاهبها أمامه فلم يجد في مضارب قومه ما يحتاجه ، أو يشبع نزواته ، فاضطرته الظروف القاسية أن يرعى إبل أخيه " معبد " ولكنه شُغل عنها بقول الشعر ففُقدت ، وطالبه أخوه بها فلجأ إلى ابن عم له يسمى " مالك " فخذله ولامه على تقصيره وإهماله ثم طلب النصرة من سيدين من قومه فنصراه حتى استطاع أن يرد إبل أخيه .

عز على طرفة أن يكون أجيرًا لغيره ، فعاد إلى سيرته الأولى وفرغ لنفسه ولذاته ، وعكف على شرب الراح ، فاضطرب أمره ، وعاد من جديد يفكر في الرحلة إلى بلاد الحيرة علّه يجد فيها ما تطمح إليه نفسه وما يُرضى هواه ٠ فقصد ملكها عمرو بن المنذر المعروف بابن هند ٠ ولعل خاله المتلمس هو الذى أغراه بذلك وشجعه عليه ، وصحبه إلى بلاد الحيرة قدم المتلمس وطرفة على عمرو بن هند فقربهما وأحسن وفادتهما وأجزل لهما العطاء وجعلهما في حاشية أخيه وولى عهده " قابوس بن المنذر " .

خبر مقتله:-

عاش طرفة في بلاد الحيرة آمنًا مطمئنًا ولكنه لم يرع حرمة هذا البلاط ، فقد أطلق لسانه وأخذ يهجو الملك وأخاه فغضب الملك وأنف من تصرف طرفة ، وقرر أن يتخلص منه ومن خاله المتلمس ، فبعث بهما إلى عامله في البحرين وزودهما برسالتين وأمره فيهما بقتلهما ، فلما هبطا النجف قال المتلمس لطرفة أنك غلام غر حديث السن وقد عرفت حقد الملك وغدره ، وكلانا قد هجاه فهل تنظر في كتابنا ، فأبى طرفة أن يفك خاتم الملك وعهد المتلمس إلى غلام من الحيرة فأعطاه الصحيفة فقرأها ٠ ولما علم المتلمس ما فيها ألقاها في نهر الحيرة وولى هاربًا إلى الشام .

وأبى طرفة أن يفعل فعله ظنًا منه أن الملك لن يجترئ عليه ، وتابع سيره إلى البحرين فلما فض و إلى البحرين الكتاب ، قال لطرفة : هل تعلم ما أُمِرْت فيك ؟ قال نعم : أُمِرْت أن تجيزنى وتُحسن إلىّ ٠ فقال لطرفة : إنى أُمِرْتَ بقتلك ، فاهرب من ليلتك هذه لأن بينى وبينك خؤولة أنا لها راع وحافظ ، ولكن طرفة لم يستجب لنصيحة الوالى ، فأرسل صاحب البحرين إلى عمرو بن هند يقول له : إنى غير قاتل الرجل ٠ فبعث إليه الملك رجلاً من بنى تغلب فقتل طرفة سنة ٥٦٤م وهو ابن عشرين سنة وقيل إنه عاش ستًا وعشرين سنة .

أخلاقه وصفاته :-

كان طرفة شاعرًا مستهترًا ، وسرفًا على نفسه في شرب الخمر وانتهاب اللذات حتى بدد أمواله وفقد الطارف والتليد وأصبح يخالط الصعاليك وقُطّاع الطرق وكان شاعرًا عنيدًا ٠ يعيش أيامه بكل ما فيها من لهو وعبث دون تحفظ أو مراعاة في مهاوى الرذيلة يألف الحوانيت ويرتاح إلى معاشرة الندماء ، ويعاشر القيان حتى اضطر قومه إلى طرده ومقاطعته فأفرد إفراد البعير المعبد .

وهو شاعر صاحب فلسفة في الحياة ، وفلسفته كانت وليدة عقله وتفكيره ، فقد اختار لنفسه نمطًا من الحياة ولونًا من السلوك أعجبه واستهواه ، فليست الحياة عنده لهوًا خالصًا ولا جَدًا خالصًا ، وإنما هى مزيج من اللهو والجد ، فإذا ما جد الجد ، واشتد الأمر ، وطلبه قومه وجدوه أسرع من الريح وإذا ما فرغ لنفسه وطلبته غريزته أطلق لنفسه العنان ، فشرب وسكر واستعجل اللذة قبل أن يفارق الحياة لأن المنية لا تفرق بين الكريم والفاحش المتشدد ، كما أن الشحيح والمفسد يستويان بعد الموت .

وملذات طرفة تنحصر في ثلاثة أشياء هى : الحرب والخمر والنساء ، وبسبب هذا النهج الذى اختطه الشاعر لنفسه لقى ما لاقى من ظلم وإفلاس وتشرد وشقاء .

منزلته الأدبية:-

كان طرفة أحدث الشعراء سنًا ، وأقلهم عمرًا ، فقد قُتِل وهو ابن عشرين سنة ولذا كان يقال له " ابن العشرين " وقد ظهرت ملامح شاعريته في سن مبكرة شأنه في ذلك شأن الموهوبين الذين يثير شاعريتهم ما يمر بهم من أزمات وأحداث .

ولطرفة ديوان شعر ٠ أشهر ما فيه المعلقة وهى الثانية بين المعلقات ٠ وقد أُعجب النقاد بشعره ٠ لأنه استطاع أن يجارى الفحول ويشترك معهم في الخصائص العامة من روعة الوصف وجمال السبك ، وقوة العبارة ٠وجزالة الألفاظ.

وقد جعله ابن سلام رأس الطبقة الرابعة من فحول الجاهليين وهم عنده : طرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، وعدى بن زيد ، وهؤلاء عند ابن سلام موضعهم مع الأوائل ، وإنما أخل بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة ، وقال : أما طرفة فأشعر الناس واحدة وأسبقهم إلى الإجادة في الفن الشعرى .

وقال عنه ابن قُتيبة : إنه أجودهم طويلة ، وله بعدها شعر حسن .

ويروى أن أبا عبيدة قال : طرفة أجودهم واحدة ، ولا يلحق بالبحور يعنى : امرؤ القيس والنابغة وزهير بن أبى سلمى ولكنه يوضع مع أصحابه الحارث بن حلزة ، وعمرو بن كلثوم وسويد بن أبى كاهل .

ويرى صاحب الخزانة أن طرفة أشعر الشعراء بعد امرئ القيس ومرتبته ثاني مرتبة ولهذا ثنى بمعلقته .

وسُئل لُبيد بن ربيعة عن أشعر الشعراء فقال : الملك الضليل يعنى امرأ القيس ثم الغلام القتيل يعنى طرفة بن العبد ثم الشيخ أبو عقيل يعنى نفسه .

وخلاصة هذه الآراء أننا أمام شاعر مبكر النبوغ ، قد شغل زمانه ومكانه وهو صغير وطارت شهرته في الآفاق حتى شغلت بلاط الحيرة ويعتبره النقاد من متقدمى الفحول ، ولا يفضلون عليه في ذلك إلاّ شيخ الشعراء " امرؤ القيس " ٠ وكانت لطرفة قدرة تمييز الشعر الجيد من الردئ والاهتداء إلى مواضع الإصابة ، ومواطن الضعف ، ومصداق

ذلك ما رواه المرزبانى عن ابى عبيدة قال : مر المسيب بن علس بمجلس بنى ثعلبة فاستنشدوه فأنشدهم:-

ألا أنعم صباحًا أيها الربع وأسلم ∴ نحييك عن شحط وإن لم تكلم

فلما بلغ قوله :-

وقد أتناسى الهم عند ادّكاره ∴ بناجٍ عليه الصيعرية مكدم[1]

كميت كناز لحمها حميرية ∴ مواشكة ترمى الخطى بمثلم

فقال طرفة وهو صبى يلعب مع الصبيان : استنوق الجمل ، فذهبت مثلاً للقوى يصير إلى الضعف والذلة .

واعتراض طرفة أن الصيعرية صفة من صفات النوق في اعناقها ، وليست للبعير ومعنى استنوق الجمل اى صار وتحول إلى ناقة .

● طرفة يتحدث عن نفسه ويصف لهو الشباب ●

١- ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد

٢- فأن تبغنى في حلقة القوم تلقنى وأن تلتمسنى في الحوانيت تصطد

٣- وإن يلتقى الحى الجميع تلاقنى إلى ذروة البيت الشريف المُصمّد

٤- نداماى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين بُرد ومُجسَد

٥- إذا نحن قلنا: اسمعينا انبرت لنا على رِسلِها مطروقة لم تَشدَّد

٦- إذا رجّعت في صوتها خِلْت صوتها تجاوب أظآر على ربعٍ رددى

٧- وما زال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى

٨- إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

٩- رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ولا أهل هذاك الطرف الممد

١٠-ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلد

١١- فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

١- المكدم : الغليظ ، ناقة مواشكة أى سريعة ، بملثم : يقال لثم البعير الحجارة بخفة يلثمها كسرها .

١٢- ولا ثلاث هن من عيشة الفتى ... وجدك لم أحفل متى قام عُوّدى
١٣- فمنهن سبقى العاذلات بشربة ... كميت متى ما تُعلَ بالماء تُزْبِد
١٤- وكرى إذا نادى المضاف مجنبًا ... كسيد الغضى نبهته المتورد
١٥- وتقصير يوم الدجن والدحن معجب ... ببهكنة تحت الخباء المعمد
١٦- كأن البرين والدماليج علقت ... على عشر أو خروع لم يُخضّد
١٧- فذرنى أروى هامتى في حياتها ... مخافة شرب في الحياة مُصرّد
١٨- كريم يُروّى نفسه في حياته ... ستعلم إن متنا غدًا أينا الصدى
١٩- أرى قبر نحّام بخيل بماله ... كقبر عوى في البطالة مفسد
٢٠- ترى جثوتين من عليهما ... صفائح صم من صفيح مُنضّد
٢١- أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى ... عقيلة مال الفاحش المتشدد
٢٢- أرى العيش كنزًا ناقصًا كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
٢٣- لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه في اليد
٢٤- فمالى أرانى وابن عمى مالكًا ... متى أدن منه يبعد ينأ عنى ويبعد
٢٥- يلوم وما أدرى علام يلومنى ... كما لامنى في الحى قرط بن معبد
٢٦- وأيأسنى من كل خير طلبته ... كأننا وضعناه في رِمْس ملحد
٢٧- على غير ذنب قلته غير أننى ... نشدت فلم أغفل حمولة معبد
٢٨- وقربت بالقربى وجدك إنه ... متى يك أمر للنكيثة أشهد
٢٩- وإن أدْعَ في الجلى أكن من حماتها ... وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد
٣٠- وإن يقذفوا بالقذع عرضك أسقهم ... بكأس حياض الموت قبل التهدد
٣١- بلا حدث أحدثته وكمحدث ... هجانى وقذفى بالشكاة ومطردى
٣٢- فلو كان مولاى امرأ هو غيره ... لفرّج كربى أو لأنظرنى غدى
٣٣- ولكن مولاى امرؤ هو خانقى ... على الشكر والتسآل أو أنا مفتدِ
٣٤- وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند
٣٥- فذرنى وخُلُقى إننى لك شاكر ... ولو حل بيتى نائيًا عند ضَرغّد

٣٦- فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
٣٧- فأصبحت ذا مال كثير وزارنى بنون كرام سادة لَمُسوّد
٣٨- أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدًا غدًا ما أقرب اليوم من غد
٣٩- ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد
٤٠- ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتًا ولم تضرب له وقت موعد

****

مناسبة القصيدة:-

هذه الأبيات من المعلقة لطرفة بن العبد التى تبلغ أكثر من مائة بيت ويذكر الرواة أن الذى حمل طرفة على قولها هو : أنه كان لطرفة ولأخيه " معبد " إبل يرعيانها يومًا ويومًا فانشغل عنها طرفة بقول الشعر ، فلامه أخوه على فعله ، وقال له : أرأيت إذا ذهبت إبلنا أكنت تردها بشعرك ؟ قال له طرفة : فإنى لا أخرج أبدًا حتى تعلم أن شعرى سيردها إن أُخذت ، وحدث أن أخذها ناس من مضر فسأل طرفة ابن عمه مالكًا أن يعينه في طلبها ولكن مالكًا لم يستجب له ، ولامه على تقصيره وقال له : فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها ، فأنشأ طرفة قصيدته ، يقص في أبياتها ما عاناه وما لاقاه ، ويتحدث عن أخلاقه وعراقة أصله ، ثم يصف نداماه ومجالس لهوه ، ثم يذكر أمانيه في الحياة التى لا يحفل إلاّ بها ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى عتاب ابن عمه : ويأسف لأن تكون هذه أخلاق أهل عشيرته ، ثم يختمها ببعض الحكم التى تدل على نبوغه المبكر .

****

اللغة:-

١- التلاع : جمع تلعة وهى مجارى المياه من رؤوس الجبال إلى الأودية ، استرفد : الرفد طلب الإعانة والمعونة .
٢- تبغنى : تطلبنى ، الحوانيت : بيوت الخمارين ، تصد تجدنى هناك .
٣- الذروة : أعلى الشىء ، المصمد : الذى يصمد إليه في الحوائج أى يقصد .

openkandil.com

٤- الندامى : الأصحاب ووصفهم بالبياض يدل على أنهم أحرار ويجوز أن وصفهم بالبياض يدل على إشرق ألوانهم ، القينة : الجارية المغنية وتُجمع على قينات وقيان ، تروح علينا : تأتينا عشية ، العسجد : الثوب المصبوغ بالزعفران .

٥- انبرت لنا : ظهرت لنا وغنت ، مطروفة : لم تبالغ في صياحها .

٦- رجعت في صوتها : كررت النغم ، خلت : ظنت ، أظار : جمع ظئر وهى هنا الناقة المرضع ، الربع من ولد الإبل وما ولد في أول نتاج ، الردى : الهلاك .

٧- تشرابى : شربى ، الطريف : ما استحدثته الرجل وكسبه ، التليد : ما ورثه عن آبائه .

٨- تحامتنى : اعتزلتنى ، أفردت : أبعدت ، المعبد ، البعير الأجرب المطلى بالقطران .

٩- بنو غبراء : الفقراء والأضياف ، الطراف : القبة من الجلد الممدد : الذى مد بالحبال .

١٠- الزاجر : الذى يلوم غيره على تصرفه ، الوغى : أصله صوت الأبطال في الحرب ، الخلود : البقاء وفعله خلد يخلد .

١١- تسطيع : لغة في استطاع ، دفع : رد ، أبادرها أتعجلها .

١٢- الجد : الحظ والبخت وجدك قسم ، لم أحفل : أى لم أهتم ، قام عودى : حان موتى وفنائى .

١٣- العاذلات : اللائمات ، الكميت : الخمر الذى يميل لونها إلى السواد ، تزبد: تفور.

١٤- كرى : عطفى ورجوعى ، المضاف : الخائف والمزعور ، المحنب : الذى في يده انحناء ، السيد الذئب والجمع سيدان ، الغضا : اسم شجر ، وذئب الغضا أخبث الذئاب ، نبهته : هيجته ، المتورد : الذى يطلب ورد الماء .

١٥- تقصير يوم الدجن : جعلته قصيرًا باللهو والعبث ويوم اللهو قصير ، البهكنة : المرأة الحسناء ، الطراف : بيت من آدم ، المعمد : المرفوع بالعمد .

١٦- البرين : واحدها بره ومعناها الخلاخيل ، والدماليج جمع دملوج وهو العضد والعشر والخروع : ضربان من الشجر والكلام على التصوير.

حيث شبه ساعديها وساقيها بالشجر والخروع في الامتلاء والنعمة والضخامة ، لم يخضد : أى لم يثن يقال خضدت الغصن : أخضدته خضًا إذا ثنيته لتكسره.

١٧- ذرنى : اتركنى وشأنى ، الشرب : بكسر الشين وضمها اسمان للمشروب مصرد : مقلل.

١٨- الصدى : العطشان.

١٩- النحام : البخيل الغوى : الضال والغى والغواية الضلالة.

٢٠- الجثوة : التراب المجموع ، الصفائح : صخور صلبة ، الصفيح : الحجارة العراض المنضد : الذى نضد على القبر.

٢١- يعتام : يختار ، عقيلة كل شيء : خيرته وأنفسه ، الفاحش : البخيل ، المتشدد : الممسك.

٢٢- شبه البقاء بكنز ينقص كل ليلة ، النفاد : الفناء وفعله نفد ينفد.

٢٣- لعمرك : قسم معناه وحياتك ، الطول الحبل الذى يطول للدابة في الكلأ حتى ترعاه وهو بيد الإنسان إذا شاء جذبه ، المرخى : المرسل ، ثنياه : طرفه.

٢٤- أدن : اقترب ، ينأى : يبعد.

٢٥- علام يلومنى : أى على أى شيء يلومنى ، قرط بن معبد : رجل من القبيلة قد لامه أيضًا.

٢٦- أيأس : يقال يئس من الشيء ييأس من خبره حتى كأن قد مات ودفنته الرمس : القبر ، اللحد : ما يشق في جانب القبر.

٢٧- نشدت : طلبت المفود أى بحثت عن إبل أخى ، لم أغفل : فلم أترك حمولة الإبل التى يحمل عليها ، معبد : كان أخا للشاعر.

obeikandl.com

٢٨- قربت بالقربى : أى أدللت على ابن عمى بالقرابة ، النكيثة : أقصى الطاقة والجهد أى إذا حدث له أمر يبلغ فيه غاية الطاقة فإنى أحضره وأنصره .

٢٩- الجلى : الأمر العظيم والخطير ، الحماة : جمع حامى من الحماية .

٣٠- يقذفوا : يسبوا ، القذع : الفحش والكلام القبيح .

٣١- بلا حدث أحدثته : أى بلا ذنب ارتكبته ، كمحدث هجائى : كمن أحدث إساءة ، قذفى ، رميى وطردى ، مطردى :أى صرت طريدًا .

٣٢- مولاى : المراد به ابن عمه : لفرج كربى:إعانتى على ما نزل بى من الغم .

٣٣- خانقى : يضيق الأمر على ، على الشكر : على شكرى إياه ، التسآل : سؤالى عفوه أنا مفتدى : أى في حال اقتداء نفسى منه .

٣٤- مضاضة : أى تأثيرًا في تهيج نار الحزن والغضب ، الحسام : السيف القاطع ، المهند : منسوب إلى الهند .

٣٥- ذرنى : اتركنى وشأنى ، نائيًا : بعيدًا ، ضرغد : اسم جبل بأرض غطفان.

٣٦- قيس بن خالد : سيد من سادات العرب ، عمرو بن مرشد : ابن عم طرفة .

٣٧- زارنى : أتانى وعضدنى ، سادة المسود : شريف لشريف .

****

الأفكار التى وردت فى الأبيات:-

١- مذهب طرفة وفلسفته في الحياة .

٢- موقف أهله وقومه من سلوكه .

٣- حديث الشاعر عن اللائمين .

٤- عتاب الشاعر لابن عمه .

التحليل

يقول طرفة:-

أنا لا أستتر في التلاع وشقوق الجبال مخافة حلول الأضياف بى أو غزو الأعداء إياه ، ولكن إذا طلب القوم إعانتى فإنى أعينهم وأنا رجل جَد إذا جَدّ الأمر ولكن إذا فرغت انطلقت مع نفسى أمتعها بشرب الخمر وسماع الغناء ، وإذا اجتمع القوم للمفاخرة بالأحساب والأنساب وجدتنى هناك لأننى أوفي حظًا في الحسب وأعلى سهمًا في النسب ، وإن تطلبنى في بيوت الخمارين تجدنى هناك ، ثم يصف مجالس الشراب التى يغشاها فيقول : إن أصدقائى من القيان والمغنيين يطربن بألحانهن ، ويسحرن بأنغامهن ، وأنا لا أترك شرب الراح مهما كلفنى ذلك من مال وإنفاق ، وما زلت عاكفًا على الخمر منهمكًا في اللذات حتى تجنبتنى عشيرتى واعتزلنى أهلى وقومى ، وأصبحت وحيدًا منفردًا كالبعير الأجرب ، ولكن ذلك لا يهمنى لأنه إذا هجرنى الأقارب فإن الفقراء وأصحاب الحاجات لن يعتزلوننى لأننى سخى جواد ، كما أن الأغنياء لن يتركوننى لرفعة حسبى وعلو نسبى ، فإن هجرنى الأقارب وصلنى الأباعد ، هؤلاء لطلب المعروف والحاجة وهؤلاء لطلب العلا والمجد . ثم يوجه الشاعر حديثه إلى اللائمين فيقول : أيها الإنسان الذى يلومنى على خوض الحروب ، وحضور مجالس الشراب واللهو . هل أنت ضامن لى الخلود والبقاء في الدنيا ان امتنعت عن ذلك ؟ هل تدفع عنى خطر الموت ؟! انك لا تستطع ذلك فان كنت لا تقدر على دفع منيتى . فدعنى بانفاقى كل طريف ومتلد . اذ لا معنى للبخل بالمال وترك اللذات مادام الموت هو نهاية كل حى .

اننى احب ثلاث خصال : تناول الكأس ، وخوض المعارك لنجدة الخائفين والمستغيثين والتمتع بالحياة ، مع امرأة حسناء تحت بيت مرفوع بالعمد ، ولذلك لا أحفل بالحياة ولا أهتم بها . فدعنى وشأنى ألهو وأشرب وأقتنص اللذات قبل فوات الأوان .

ثم يقول طرفة:-

أنا إنسان كريم أروى نفسى بالخمر ، وشرب الكأس وسوف تعلم أيها اللائم إن متنا غدًا أينا العطشان ، وسوف ترى إنه لا فرق بين البخيل والكريم بعد الموت ، فإنى أرى

أن قبر البخيل الحريص بماله كقبر الغوى الضال المفسد بماله ، فهما يتساويان بعد الموت ، وأعلم أن الموت يختار الكرام بالإفناء ويصطفى كريمة مال البخيل المتشدد بالإبقاء ، ولكن العمر ينقص ، وكل ما ينقصه مرور الزمن ماله إلى النفاد ، وأقسم لك أن الموت إذا أغفل بعض الناس وطال عمرهم فإنهم لا يخرجون عن سطوته وسلطانه ، لأن الإنسان لا محالة ميت وإن طال عمره .

ثم يعامل الشاعر ابن عمه على سوء معاملته إياه فيقول : إننى أتعجب من أمر ابن عمى ، إنه يلومنى دون مناسبة تذكر وكلما تقربت منه تباعد عنى ، حتى أصبح لا يرجى منه خير ووَصْل ، إننى لم أرتكب جناية أو أقترف ذنبًا ، لقد وهبت حياتى لقومى فإذا جدّ الجَد ، أو دعانى أخى لأمر عظيم أو حادث جليل فإنى أُهُبّ لحمايته ودفع الأذى عنه ، وإن حاول الأعداء أن يسيئوا إليه أوردتهم حياض الموت ، فعلام يهجرنى أخى ويسىء إلىّ وكأنى أحدثت حدثًا أو ارتكبت ذنبًا ، لو كان ابن عمى يحسن معاملتى لفرج كربى وأمهلنى زمانًا ، ولكن ابن عمى يضيق علىّ الأمر ٠ سواء شكرته على نعمه وأياديه أو سألته البر والعطف .

إننى حزين متألم لأن ظلم الأقارب أشد تأثيرًا في تهييج نار الحزن والغضب من وقع السيف القاطع ، فأرجو أن تتركنى إلى طبيعتى وسجيتى فإنى شاكر لك ٠وإن بعدت غاية البعد حتى تنزل بيتى عند جبل ضرغد ، واعلم أن اللّٰه لو أراد أن يجعلنى موفور الحظ كثير المال لأصبحت مثل قيس بن خالد وعمرو بن مرثد ، ولصرت كثير المجد كريم العقب .

ثم يختتم قصيدته ببعض الحكم التى أبرزتها تجاربه في عمره القصير فيقول :

إننى أرى الموت يرده كل الناس ، وليس غد ببعيد ، فالدهر يمر ، والسنون تتوالى مسرعة والكل سوف يشرب كأس المنية ، وسوف تطلعك الأيام على ما تغفل عنه ، وسينقل إليك الأخبار من لم تزوده أو تبين له وقتًا لنقلها إليك ولم تسأله عن ذلك .

****

تعليق عام

هذا النص من معلقة طرفة بن العبد التى عدها النقاد من غرر الشعر الجاهلى ، وعُدّ بها طرفة من الفحول المتقدمين من شعراء الجاهلية ، والأبيات التى اخترناها تعكس جانبًا من أخلاق العرب ، وتصور النزعة المادية التى كانت عند فئة من الشباب الجاهلى ، الذى اعتنق اللذات ، وعكف على الخمر دون وازع من ضمير أو خلق .

تحدث طرفة عن فلسفته في الحياة ، وعرض لنا صورًا من حياته وسلوكه وأخلاقه واعترف اعترافًا صريحًا بارتكابه الملذات وعكوفه على شرب الخمر ، وقد أدى هذا السلوك إلى أن تحامته عشيرته وأفرد إفراط البعير المعبد .

ثم بين الشاعر أنه لا يحفل بالحياة ولا يحرص عليها وقرن ذلك بأن الموت لا يبقى ولا يذر ، وأنه يسوى بين الكريم والبخيل ، كما أنه يقضى على ما خلفه البخلاء من مال ومتاع ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن ابن عمه الذى أهانه وطرده مع أنه لم يقترف ذنبًا ولم يرتكب إثمًا سوى طلب العون على إعادة إبل أخيه التى ضلت أو فقدت ، إنه يهب حياته في الدفاع عنهم ، ولكنه يأسف لما يحدث منهم من إهانة وإيذاء .

وتشير الأبيات إلى أن سلوك الشاعر كان سلوكًا مضطربًا ، وأن فلسفته كانت مضطربة ، كما أنها فلسفة شاب غير مهذب ، فتارة نجده كريم النفس ، يحرص على الأمور الجادة ، يساعد الفقراء ولا يضيق بمعونة المحتاجين والمعوذين ، وتارة أخرى نراه وقد أسرع إلى حوانيت الخمارين يشرب الخمر ، وينتهب اللذات ويستهين باللذات وبكل القيم .

فحياته الاجتماعية لقومه قبل أن تكون لنفسه سواء في الحرب أم في السلم ، وهو يشعر بهذا الواجب شعورًا قويًا ، ويسرع في الإجابة إليه يقول :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أننى ∴ عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وهو لكل من يحتاج إليه ٠ يتحرى الأماكن العالية ، لكى يراه السائل ، ويدعوه المستغيث .

ولست بحلال التلاع مخافة ∴ ولكن متى يسترفد القوم أرفد

أما حياته الذاتية فينظر فيها إلى نفسه وجسده .

فهو يحرص على الشهامة العربية ، فيألف مجلس الشيوخ ، ليفاخر بحسبه ونسبه.

وأن يلتقى الحى الجميع تلاقنى ∴ إلى ذروة البيت الرفيع المصمد

وهو شجاع مقدام يُدعى للأمر الجليل فيلبى النداء :

وإن أدع للجلى أكن من حماتها ∴ وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد

ولكن بعد ذلك يرتاد مجالس اللهو ، ويحب شرب الخمر ، ولا يشرب عليها وغرق فيها :-

وما زال تشرابى الخمور ولذتى ∴ وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى

إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ∴ وأفردت افراد البعير المعبد

ثم يشبر إلى يأسه ورغبته في استعجال اللذة قبل مفارقة الحياة التى لا يثق بنعيم وشراب في غيرها فيقول :

فذرنى أروى هامتى في حياتها ∴ مخافة شِرْبٍ في الحياة مصرد

هذه طويلة طرفة تعكس نفسيته في قوة وصدق ، وتتلألأ على صفحتها تجارب حياته وهى صورة صادقة من عمره القصير ، يقص فيها ما عاناه وما لاقاه ويشرح فيها فلسفته التى هى وليدة عقله ، وكانت ثمرة سلوكه وتفكيره .

ولم تكن أفكاره مرتبة متسلسلة كما أنها تؤلف وحدة موضوعية لأنها اشتملت على أغراض كثيرة مما يدل على أن الشاعر قد نظم قصيدته على فترات متعددة ، خضع كل منها لحالة نفسية خاصة ، وكان أسلوبه متنوعًا بحسب مقتضى الحال ، فيشتد في مواقف الشدة ، ويلين في المواقف العاطفية والتعبير عن الشعور ، وتمتاز الأبيات المختارة بجزالة الأساليب وقوة الألفاظ ، ومتانة التراكيب ، وكثرة المعانى التى تتصل بنفس الشاعر وحياته وقبيلته ، وهى معان بسيطة قريبة التناول بعيدة عن التعقيد والمبالغة شأنها في ذلك شأن كثير من الشعر الجاهلى .

وقد استمد الشاعر خياله من بيئته الصحراوية ، فرسم لنا صورة لمجتمعه الكبير بريشة فنان حاذق ، وقد اعتمد في ذلك على الصور الجزئية التى تمتاز بالبساطة والسهولة فندماؤه كالنجوم تتلألأ غررهم في الأندية والحوانيت ، وصوت المغنية يشبه صوت الناقة التى تصيح عندما ترى صغارها ، وهو حين طرده قومه وأهله صار كالبعير الأجرب ، وفرسه يسرع في عَدْوه كذئب الغضا الذى يريد الماء ، والموت لا يمكن التخلص منه ، كما أن الدابة لا تفلت ما دام صاحبها آخذًا بطرفى حبلها٠ وغير ذلك من الصور التى تتصل بنفسه ، وتعبر عن إحساسه ، وتترجم عن عواطفه ، و إلى جانب ذلك تشهد ببراعته ، وتوحى بمهارته الفنية .

صلة الشاعر بالبيئة الجاهلية :-

تعكس قصيدة طرفة صورًا من عادات الجاهليين في مجتمعاتهم ومجالس لهوهم وتعتبر وثيقة تاريخية تثبت لنا ألوانًا من أخلاق العرب التى أولع بها بعض فتيان الجاهلية كما تنقل لنا وصفًا تفصيليًا لحياة الصحراء والبادية التى كان يعيش فيها العرب من ذلك :

١- أن الإبل كانت من أبرز معالم الحياة العربية ، فهى عماد حياتهم ودليل ثرائهم ولذلك كانوا يحرصون عليها ولا يرعاها إلاّ فتى يقظًا يحسن رعايتها والحفاظ عليها .

٢- عرف العرب قديمًا طريقة (الحجْر الصحى) فقد كانوا يبعدون البعير الأجرب ويمنعونه من دخول أماكن الإبل لئلاّ تسرى عدواه إلى غيره .

٣- تصور الأبيات خلق العزة وإباء الضيم التى كانت من ثمرات الحرية التى عشقها العربى فقد كان العربى سيد نفسه ٠ لا يخضع إلاّ لسلطان قومه ولا يرضى إلاّ بما تسنه قبيلته .

٤- وتعكس معلقة طرفة صورة لبيوت الخمارين في الجاهلية ، والتى كان يترد عليها العابثون من الشباب يشربون ويطربون على أصوات القيان والجوارى.

٥- ومما نجد في قصيدة طرفة أن بعض القبائل كانت تنكر على شبابها شرب الخمر ، وأن العشائر كانت تكره أن يتردى فتيانها في معاقرتها ولذلك كانوا ينفرون منهم ويطردونهم .

****

obeikandl.com

ظواهر مهمة في الشعر الجاهلى
التوحد الفنِّىُ

أعنى بالتوحد الفنى تلك الظواهر الفنية التى تواضع عليها الشعراء الجاهليون والتزموا بها في قصائدهم ، أو بمعنى أدق نلمسها منطبعة في أشعارهم لا يخرج عليها شاعر مهما تناءت ديارهم واختلفت مشاربهم .

فهذا التوحد يعكس لنا صور التوحد في الهَمّ والمعنى ، ويرتبط التوحد الفنى ارتباطًا وثيقًا بما سبقت معالجته في هذه الصفحات ، ولست أرى أن الظاهرة الفنية تنفصل انفصالاً تامًا عن الظاهرة الحياتية ، فالصورة نبض القلب ومرآة ما يعتمل داخل النفس وترجمة صحيحة لما يبطنه الشاعر الإنسان أيًا كانت درجة هذه الصحة ٠ فما دام الهَمّ واحدًا فالمعالجة الفنية لا تخرج عن نسق واحد أو متشابه في السمات متقارب في الأبعاد .

وقبل أن نلج فى الحديث عن مظاهر هذا التوحد الفنى تجدر الإشارة إلى أن اللغة التى جاء الشعر الجاهلى بها ونزل بها القرآن الكريم أيضًا بها لم تكن هكذا في نشأتها وإنما حدث هناك انتقاء واصطفاء .

فكما اصطفى اللّٰه محمدًا من قريش واصطفى قريشًا من العرب كذلك يسّر اللّٰه الأسباب ، وهيأ لتلك الرسالة لغة اصطفاها لتكون لسان ذلك النبى وأداة هذه الرسالة .

قال الخطابى : " اعلم أن اللّٰه لما وضع رسوله- صلى اللّٰه عليه وسلم- موضع البلاغة من وحيه ونصّبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربها ومن الألسن أفصحها وأبينها ثم أمده بجوامع الكلم " [1] .

أما بالنسبة لقريش فقد حدث لها اصطفاء في أساليبها أيضًا أجمع علماء العربية على : أن قريشًا أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة وذلك أن اللّٰه اختارهم من جميع العرب واختار منهم محمدًا - صلى اللّٰه عليه وسلم - فجعل قريشًا أقطان حرمه وولاة بيته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون

١- المزهر للسيوطى ٢٠٩/١ (النوع التاسع) .

obeikandl.com

إلى قريش في دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب . [1]

وقال ثعلب في أمانيه أيضًا : " ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم ، وتلتلة بهراء ، وكسكسة ربيعة ، وكشكشة هوازن ، ... وعجرفية ضبَّة : وفسر تلتلة بهراء بكسر أوائل الأفعال المضارعة " .

وقال أبونصر الفارابى : " كانت قريش أجود العرب انتقادًا للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعًا وأبينها إبانة عمَّا في النفس ، والذين عنهم نُقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب هم قيس ، وتميم ، وأسد " [2] .

وهذا على حد قول د / بنت الشاطئ : " ما فات أصحاب دعوى انتحال الشعر الجاهلى وقد رابهم من أمره أن جاء من قبائل متعددة بلغة واحدة لا تحمل أثرًا لاختلاف اللهجات وشعراء العربية اليوم يتكلمون بلهجات متعددة شتى ويعيشون بها في ديارهم وأقطارهم ، لكنهم في الشعر يستعملون الفصحى المشتركة ولسنا مع ذلك ننكر أشعارهم أو يريبنا منه أنها لا تمثل لهجاتهم الإقليمية " [3] .

وعندى أن هذا الاصطفاء للغة الموحدة التى التقى عليها الشعراء الجاهليون لم يكن إلاّ من قبيل الإرهاصات الفنية لنزول القرآن ومبعث الرسالة الخاتمة توحيدًا للفهم وتيسيراً للالتقاء ، وفتحًا جديدًا للاستيعاب المرتجى لقضايا هذه الرسالة وقيمها .

أما عن متى بدأت هذه اللغة الموحدة للشعر الجاهلى : فهذا سؤال يصعب الإجابة عليه " .. فإن تطور اللغة في عصر امرئ القيس مصاحبًا لتطورات فنية أوسع تراها في شعر امرئ القيس ، حيث أن تركيب القصيدة الجاهلية النموذجية الذى نراه عند

١-المزهر ٢١٠/١ (النوع التاسع).
٢- المزهر ٣١١/١ .
٣-لغتنا والحياة ـ دار المعارف ط٣ص ٥٠.

امرئ القيس يدل على تطور واسع ، ولابد على ذلك من أن تكون اللغة قد تطورت وارتفعت إلى صيغتها العامة قبل زمن امرئ القيس " [1] .

ولعل هذه اللغة الموحدة التى استقرت عليها السنة الشعراء هى التى جعلت هناك شيئًا من هذا التوحد الفنى يتوهج في المعالجة الفنية في القصيدة عندهم والتى أراها متمثلة في هذه النقاط الآتية :

١- المقدمة .

٢- المرأة .

٣- الناقة ودلالتها .

٤- الوزن والقافية (الإيقاع) .

وهذه النقاط ليست تقسيمًا جامدًا أو جامعًا مانعًا . وإنما هى تحمل دلالات هذا التوحد في غالب أمره من خلال شيوعها والإجماع عليها في القصيدة الجاهلية ٠ كما أن تواضع الشعراء عليها ينبئ عن روح واحدة يصدرون عنها حتى لكأنك : تقرأ القصيدة الواحدة للشاعر فيعز عليك نسبتها له إلاّ إذا كنت على بينة من هذه النسبة .

يقول د / طه حسين : " ٠٠ ويعجبنى الشعر الذى لا تستطيع أن تنتهى به إلى شاعر معروف واضح الخصال بَيّن الشخصية ، يعجبنى لأن عظمة تأتيه من هذا القِدم الذى يخفى علينا مصدره إخفاءً ويخيل إلينا أنه صوت الصحراء ، أو صوت جيل بأسره من أجيال الناس " [2] ومن ثم يجد القارئ لهذا الشعر (لغة واحدة) وإيقاعًا واحدًا ونمطًا واحدًا يمضى على مثابته ، ولم يكن ذلك من قبيل التقليد البحت بقدر ما كان اتساقًا مع روح الجمع ، واستجابة للهم الواحد الذى يربط الشعراء جميعًا ٠ وهل هناك أدل على هذا من ظاهرة شعر الصعاليك ؟! إذ نجد شعرهم في الأعم يتفرد بخصائص فنية اجتمعوا عليها على نحو ما هو مبين عند د / يوسف خليف . من كون هذا الشعر يمتلك ظواهر فنية من مثل أنه شعر مقطوعات ، وفيه الوحدة الموضوعية ، وتخلصه من المقدمات الطللية ،

١-الشعر الجاهلى : تطوره وخصائصه الفنية ٠ د / بهى الدين زيان ص١٦٠ .
٢-حديث الأربعاء ١٦٥/١.

obeikandl.com

وعدم الحرص على التصريع ، والتحلل من الشخصية القبلية ، والسمة القصصية ، والواقعية والسرعة الفنية [١] .

فشعر أية فئة تمحض لهدف واحد ، وتؤرقها فكرة واحدة يأتى متشابهًا متوحدًا في إطار فنى واحد كما ألمح الى ذلك د / أحمد الحوفى في عرضه شعر الفرق الدينية في العصر الأموى مثل شعر الشيعة والخوارج والزبيريين [٢] إذ وجد أن كل فرقة يمتاز شعرها شعرها بطائفة من الخصائص الفنية تبرزها في معارض القول الذى يكشف عن هم واحد وأرق واحد من هذا يمكن الخلوص إلى القول بأن الشعر الجاهلى أيضًا له من الخصائص الفنية التى توحدت فيه وتعارف عليها الشعراء مما يكشف لا عن المذهب الفنى المتبع فقط وإنما يكشف عن ذلك الشعور الواحد والإحساس الذى كما يكتنف قرائحهم ويحرك عواطفهم في معالجة فنية انساقوا فيها إلى أساليب متشابهة وأحيانًا متداخلة ومتشابكة وربما لمسنا هذا من خلال السرد الآتى لبعض الظواهر التى أشرنا إليها آنفًا ويأتى في مقدمتها :-

١- المقدمة الطللية :-

لم يخرج ناقد قديم أو حديث على القول بأن المقدمة الطللية تأتى في مقدمة الخصائص العامة التى ينفرد بها الشعر الجاهلى ، ولم يكن ذلك- كما سلف القول- من قبيل الاستجابة للتنظير النقدى بقدر ما هو كشف عن ظاهرة ملموسة في القصيدة الجاهلية واعتراف بواقعها ووجودها ، وما علمت أحدًا خرج على هذا الإجماع غير واحد إذ رأى " أن التصور الشائع لطغيان الأطلال في الشعر الجاهلى لا أساس له من الصحة وأنه يقوم على تقبل الفكر الموروث أكثر مما يقوم على نتائج الدراسة التحليلية الجادة " [٣] .

ولسنا هنا بصدد التصدى لهذه النتيجة التى توصل إليها هذا الناقد إذ تبدو في مجملها متسرعة ينقضها ظاهر ما ورد إلينا من شعر جاهلى ، وما لمسه النقاد القدامى

١- انظر الشعراء الصعاليك ص ٢٥٩ وما بعدها ٠ دار المعارف ط٣ .
٢- أدب الساسة فى العصر الأموى ط٥ نهضة مصر ص ١٨٤ وما بعدها .
٣- د/ كمال أبو ديب : في كتابه (الرؤى المقنعة) ص٦٧٠ وما بعدها .

openkanoo.com

حينما تتبعوا هذه الظاهرة من أمثال ابن رشيق القيروانى في العمدة ، وابن طباطبا في عيار الشعر ، وغيرهما .

ومهما يكن من شيء فإن القارئ يلمس للمقدمة حضورًا قويًا متوهجًا في الشعر الجاهلى من خلال ما وصلنا في المعلقات السبع أو العشر ، والمختارات من أمثال الأصمعيات ، والمفضليات ، وكذلك دواوين الشعراء الجاهليين من أمثال امرئ القيس ، وعنترة ، وزهير ، والنابغة ، ودريد بن أبى الصمة ، وعبيد بن أبى الأبرص :

وأول ما ينبغى ذكره من النماذج الخالدة في هذا الصدد المعلقات السبع المشهورات . فيقول امرؤ القيس :-

١- قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
٢- فتوضح فالمقراة لم يَعْفُ رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
٣- ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فُلْفُلِ
٤- كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سَمُرات الحى ناقف حَنْظَلِ
٥- وقوفًا بها صحبى علىّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمَّلِ
٦- وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من مُعَوَّلِ
٧- كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتها أم الرباب بمأسَلِ [1]

فهذه مقدمة طللية على ما يبدو يفتح بها الشاعر قصيدته فتشده إلى ما وراءها من التذكر والتسلى ومعالجة شئون عواطفه وأحاسيسه المتلاطمة في هذه الحياة ، وإن كان الشاعر تثيره هذه الأطلال وتبكيه فذلك لأنها (لم يعف رسمها) .

أى " .. بقيت منه آثار تدل عليه ، منعها من أن تذهب البته اختلاف الريحين عليه ، فكلما رمسته هذه ودفنته بما هالت عليه من الرمل سفرت عنه الأخرى وأظهرته فهو وإن تغير أثره باق فنحن ننظر إلى ما يحزننا " [2] ولم لا ترى أن امرأ القيس هو الذى تعمد بقاء هذا الرسم بقاءً يتعلق به أملٌ في هذا العالم الذى تلوح عليه أمارات الفناء لا سيما

١- شرح القصائد السبع ص١٥ وما بعدها .
٢- ديوان امرئ القيس ص٨ .

والشاعر فى ختام قصيدته يرقب البرق اللامع في الأفق طمعًا في مائه "هو الذى يريكم البرق خوفًا وطمعًا وينشى السحاب الثقال " [1] .

أحارِ ترى برقًا كأن وميضه ... كلمع اليدين في حبى مكلَّلِ
يضئ سناه أو مصابيح راهب ... أهان السّليط في الذبال المفتّلِ
قعدت له وصحبتى بين حامر ... وبين أكام بعد ما متأمّلِ
وأضحى يسح الماء عن كل فيقة ... يكب على الأذقان دوح الكنهبل
وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ... ولا اطمًا إلاّ مشيدًا بجندلِ [2]

فالأطلال الدوارس والديار المقفرة من أهلها تفتقر الماء الذى يعيد إليها الحياة مرة أخرى ، إذ أبقى الشاعر منها بقايا (لم يعف رسمها) بل إن الشاعر يشير إلى ثنائية معضلة في الحياة ، فما منه تكون الحياة يمكن أن يكون منه الدمار والهلاك وكأنه يقول للراحلين الذين خلفوا هذه الأطلال وراءهم وذهبوا يبحثون عن فرصة أخرى للحياة في مكان آخر تتبعًا لأسباب تلك الحياة (الماء) ٠ وكأنه يقول : إذا ما ذهبتم وراءه ربما تجدون فيه هلاككم وما حسبتموه ماءً تحيون به تفاجأون منه بما يوردكم موارد الهلكة وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من قوله تعالى عن البرق " يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا " فمنه خوف إذ قد يكون منه سيل مدمر مهلك ومنه طمع حيث يكون الماء الذى يحى الأرض بعد موتها .

والسيل هنا في القصيدة دمّر وأهلك وكبَّ على الأذقان دوح الكنهبل ، ولم يترك في تيماء جذع نخلة ولا أطمًا ولم ينج منه إلاّ (مشيد بجندل)٠وهذا فيه إيحاء إلى جلد الشاعر ومناهضته عوامل الفناء ومدى حرصه على أسباب الحياة ثم يقول الشاعر بعد ذلك:

وألقى بصحراء الغبيط بعاعه ... نزول اليمانى ذى العباب الحمّلِ [3]

١- الرعد آية ١٢ .
٢- الديوان ص٢٤ وما بعدها - شرح القصائد السبع ص٩٩ وما بعدها مع اختلاف يسير في الألفاظ .
٣- الديوان ص٢٤ وما بعدها - شرح القصائد السبع ص٩٩ وما بعدها مع اختلاف يسير في الألفاظ .

obeikandl.com

وصحراء الغبيط هذه أرض لبنى يربوع مجدبة ، والغبيط نجعة يرتفع طرفاها ويطمئن وسطها وهى كغبيط القنب والبعاع الثقل تقول ألقى فلان بعاعه أى ثقله وما معه من المتاع فضربه مثلاً للسحاب والمعنى أن السحاب أرسل ماءه وثقله كهذا التاجر اليمانى حين ألقى متاعه في الأرض ونشير ثيابه فكان بعضها أحمر وبعضها أصفر وبعضها أخضر وكذلك ما أخرج المطر من النبات والزهر وألوانه مختلفة كاختلاف ألوان الثياب اليمانية [1] فالماء أعاد الحياة والنضرة إلى تلك الأرض المجدبة وهنا تكمن العلاقة الحميمة بين المقدمة الطللية التى وقف الشاعر باكيًا عليها . ذكرى غالية لحبيب عزيز وبين ما أشار إليه الشاعر من وصف البرق والسيل والسحاب الذى ألقى ماءه فاخضرت الجدباء .

فهل يمكن القول بأن بداية القصيدة لها علاقة بما ورد من نهاية لها ؟ أو يمكن القول بأن القصيدة تحكمها فكرة واحدة ونسيجها هَمّ واحد ويقف وراءها شغل شاغل للشاعر لم يبرح مخيلته إذن فلا مقدمة وإنما هى المعاناة التى اتضحت معالمها منذ أول بيت في القصيدة حتى آخر كلمة فيها ، وإن أردت التثبت من هذا اللمس فاقرأ بداية القصيدة مرة أخرى ثم انظر هذا البيت الذى ورد في آخرها :-

كأن السباع فيه غرقى عشية ... بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

لخولة أطلال ببرقة ثهمد ... ظللت بها أبكى وأبكى إلى الغد

وقوفًا بها صحبى علىّ مطيهم ... يقولون لا تهلك أسى وتجلد

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

عدولية أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورًا ويهتدى

يشق حباب الماء حيزومها بها ... كما قسم التربَ المفايل باليد [2]

فالشاعر في هذه الأبيات يقول أن خولة لها أطلال ديار بذلك الموضع إذ تلمع لمعان بقايا الوشم فى ظهر الكف ثم أشار إلى مركب العشيقة المالكية غداة فراقها حيث شبهها بما عليها من الهوادج بالسفن العظام التى تنتمى إلى قبيلة عَدَولى والملاح يجرى بها

١-نفسه ص١٠٩.

٢-شرح القصائد السبع ص ١٣٢ وما بعدها .

مرة على استواء واهتداء وتارة يعدل بها فيميلها عن سنن الاستواء فكذلك الحداة تارة يسوقون هذه الإبل على سمة الطريق وتارة يميلونها عن الطريق ليختصروا المسافة [1] فطرفة لم يخرج عن ذلك الإطار المحكم للقصيدة العربية في التمسك بتلك البكائية على طلل الحبيبة ، وإن كنا نرى أيضًا أن هذه المقدمة لا تنفصل عن الفكرة العامة للنص ، فليس هناك انفصام بين قوله :

لخولـــة أطـــلال ببرقـــة ثهمـــد ظللت بها أبكى وأبكى إلى الغد

وبين قوله :-

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تكن تزود

سيأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له وقت موعدِ

والبحث عن هذه العلاقة يكشف عن كثير من الأسرار التى عرف بعضها ولم يعرف بعضها الآخر ونرجئ هذا لمعالجة أخرى لسنا بصددها الآن وتعال معى إلى معلقة (زهير بن أبى سلمى) .

يقول في مقدمتها :-

أمـــن أم أوفـــي دمنـــة لـــم تكلـــم بحومانـــــة الـــــدُّرَّاج فـــــالمتثلِّمِ

ديـــار لهـــا بـــالرقمتين كأنهـــا مراجـع وشـم فـي نواشـر مِعْصـمِ

بهـا العـين والآرام يمشـين خلفـة وأطلاؤها ينهضـن من كل مجـثمِ

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأيـا عرفـت الـدار بعـد تـوهُّمِ

أثـافى سـفعًا فـي مُعـرَّس مرجـل ونؤيـا كجـذم الحـوض لـم يتـثلّمِ

فلمـا عرفـت الـدار قلـت لربعهـا ألا أنعم صباحًا أيها الربع وأسلم[2]

لسنا نجد هنا انفصامًا أيضًا بين هذه المقدمة للقصيدة وبين نهايتها التى يقول فيها الشاعر :

١-انظر نيل الأوتار للزوزونى ص٤٤، ٤٥.

٢-شرح القصائد السبع الطوال ص ٢٣٧ وما بعدها .

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ولو خالها تخفى على الناس تُعْلَم
واعلم مافى اليوم والأمس قبله ولكنى عن علم ما في غدٍ عَمِى[1]

فلا انفصام بين معرفة الدار بعد تعب ومشقة وتتبع وبين معرفة ما في ضمير المرء وما يخفيه من خليقة يحبسها ويخفيها على الناس فالأمور إلى انكشاف وافتضاح ، ووضوح كما لا يبعد هذا عن فكرة القصيدة والأحاسيس التى شاعت في حنايا كلماتها مطوية في صورها وأساليبها إذ ما على أهل الحكمة والعقل إلا إن يتداركوا أولاً هذه الحرب الضروس ويعملوا على إطفائها ، فرؤية الحريق تعجل بمحاولة إطفائه قبل البحث عن أسبابه ، ثم بعد ذلك فلن يخفى شيء مهما كان مخفيه .

ولا يشذ عن هذا عنترة في معلقته أيضًا التى يقول في مقدمتها :-

هل غادر الشعراء من متردَّم أم هل عرفت الدار بعد توهم
يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحًا دار عبلة واسلمى
فوقّفت بها ناقتى وكأنها فَدْنٌ لأقضى حاجة المتلوِّم
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا بالحزن فالصَّمَّان فالمتلثم [2]

في بداية المقدمة يلمس الشاعر ظاهرة التوحد الفنى بمعنى أن الشعراء " لم يتركوا شيئًا إلاّ رجعوا نغاماتهم بإنشاء الشعر وإنشاده في وصفه ورصده " [3] " والردم مثل الترنم وهو ترجيح الصوت مع تحزين "[4] وإن كان هناك معنى آخر لقول عنترة معناه : " ولم يترك الأول للآخر شيئًا "[5] .

وهذا المعنى الأخير قد نستبعده ، لأنه يصادم الحقيقة الدامغة التى تنطق بالروح الجماعية التى يصدر عنها الشاعر في هذا الموضوع ففن "الأطلال كغيره من فنون الشعر العربى في العصر الجاهلى ينبع من إلزام اجتماعى فالشاعر من حيث هو فنان يوشك أن

١- نفسه ٢٨٩ .
٢- نفسه ص٢٩٤ وما بعدها .
٣- نيل الارب للزوزنى ص ١٣٧.
٤- نفسه ١٣٧ .
٥- نفسه .

يكون ملتزمًا ، ويأتيه هذا الالتزام من ارتباط غامض بحاجات المجتمع العليا ... ولذلك يجب ألاّ يغيب عن الذهن أن الأطلال والشعر الجاهلى كله يثير الأمل في معنى الانتماء وسلطان اللاشعور الجمعى ، فالشاعر الجاهلى لا يتصور الفن عملاً فرديًا بل يتصوره نوعًا من النبوغ في تمثل أحلام المجتمع ومخاوفه وآماله"[1] .

أما قول الشاعر :-

مـــا أرانـــا نقـــول إلاّ معـــارًا أو معـــادًا مـــن لفظنـــا مكـــرورًا

فيرى د/ مصطفى ناصف أن كلمة التكرار هذه تبعث إلى الذهن الملالة ونتيجة لهذا كله أصبح الشعر الجاهلى محتاجًا إلى دراسات كثيرة لأن فكرة التشابه أو التكرار التى نقلناها تقتل الهمة وتثبط العزيمة ، فإذا تذكرنا مدلول اللاشعور الجمعى بدا أمامنا التكرار محتاجًا إلى تفسير .[2]

وربما كان هذا التوحد الفنى في المعالجة والهمّ الواحد الذى يلمس من وراء الوقوف على الأطلال هو الذى حدا بالدكتور (يوسف خليف) ليرى في المقدمة الطللية في طور من أطوارها أنها تقليدية إذ : " وزع فيها المقدمات الطللية على ثلاث مراحل ، أما الصورة العامة للمقدمة الطللية كما ظهرت عند شعراء المرحلة الأولى فصورة طبيعية بسيطة غير معقدة دون تدخل واضح من الشعراء في تسجيلها " وقد وُضِع امرؤ القيس في هذه المرحلة " التخطيط العام للمقدمة الطللية في هذا الشعر ورسم منهجها لمن جاء بعده من الشعراء " .

" وفي المرحلة الثانية لم يكن تطور العمل الفنى عند شعراء هذه المرحلة ثورة على الشكل والمضمون ، وإنما كان في حقيقة أمره محاولة ناجحة للنهوض بفن الشعر وصناعته" .

١- قراءة ثانية لشعرنا القديم ٠ د/ مصطفى ناصف ص٥٣ ، ٥٤ .
٢- نفسه ص ٥٤ .

obeikandi.com

ويمثل لهذه المرحلة بزهير " وفي المرحلة الثالثة أخذت المقدمة الطللية يتحول فيها إلى مقدمة تقليدية " ويستشهد على ذلك بمقدمة لبيد لمعلقته[1] .

وهذا- في نظرى تقسيم جانف يقسوا على طبيعة القصيدة العربية فكل شاعر في الشعر الجاهلى كما يقول د/ مصطفى ناصف : " لا يبدأ الحديث ولا يخاطب المجتمع الذى ينتمى إليه إلاّ عن طريق بعث الماضى ، فالماضى يأخذ صفة الإلحاح على عقل الشاعر كل شاعر يذكر الدمن والأطلال والرسوم وهى بقايا الماضى والعلاقات الأولى في الطريق ، ولا بدء إلاّ من الماضى ولا خطاب في مشغلة من المشاغل إلاّ إذا قام أولاً على وظيفة التذكر ويصبح التذكر فريضة مهمة لا يستطيع أن يفرط فيها إنسان ... ولا يستسيغ المجتمع معنى الشعر والمعرفة إلاّ مقرونًا بالتذكر ،والتذكر بهذه الوسيلة يصبح شعيرة من شعراء". [2]

ومهما يكن من شيء فلم تكن هذه المقدمة الطللية إلاّ صدى من أصداء الشعور العام الذى يخالج الشعراء في هذه الحياة التى كانوا يعيشونها بأحاسيسهم ومشاعرهم ، ويلمسها الشاعر واضحة في هذه النماذج السبعة (المعلقات) وإن شئت اقرأ هذه المقدمة لمعلقة (الحارث ابن حلزة) :

آذنتنا ببينها أسماء ... رُبَّ ثاوٍ يملّ منه الثواء
بعد عهد لها ببرقة شماء ... فأدنى ديارها الخلصاء
فمحيَّاة فالصفاح فأعلى ... ذى فتاق فعاذب فالوفاء
فرياض القطا فأودية الشـ ... ـرب فالشعبتان فالأبلاء
لا أرى من عهدت فيها فأبكى ... اليوم دلها وما يرد البكاء
وبعينيك أوقدت هند النا ... ر أخيرًا تلوى بها العلياء
أوقدتها بين العقيق فشخصين ... يعود كما يلوح الضياء
فتنورت نارها من بعيد ... بخزاز هيهات منك الصلاء[3]

١-انظر- مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلى ٠ د/ حسين عطوان - دار المعارف ص٢٢٦ ، ٢٢٧.
٢- قراءة ثانية لشعرنا القديم ص٥٥ .
٣- شرح القصائد السبع الطوال ص ٤٣٣ وما بعدها .

فهذه المقدمة ليست صكًا ولا حلية للقصيدة ولا نمطًا فنيًا بحتًا وإنما هى على صلة حميمة بالهمّ الذى اكتنف مشاعر الشاعر وأحاسيسه ٠ والقصيدة في إطارها العام محاولة من الشاعر لحقن الدماء وإطفاء نار حرب مستعرة غاب العقل وغربت الحكمة عن أطرافها وهى على النقيض من تلك القصيدة التى التهبت فيها مشاعر الفخر والتطاول (لعمرو ابن كلثوم) .

فالحارث بن حلزة يقول في توطئته الرامزة " المقدمة " إن أسماء قد أعلمتنا بمفارقتها وإن كان هو لم يمل منها وإن طالت إقامتها ، وهى قد عزمت على الفراق بعد أن لقيها ببرقة شماء وخلصاء ، وهى ديارها القريبة إلى الشاعر وكذلك المحيا ، والصفاح ، وأعناق ، وعاذب ، والوفاء ، ورياض القطا ، وأودية الشريب ، والشعبتان ، والأبلاء فيقول: لم أعد أرى من عهدت في هذه المواضع ، وهى (أسماء) ومن ثمّ هو يبكى اليوم ذاهب العقل ولكن هل يرد البكاء شيئًا غاب ؟! ثم يلتفت الشاعر إلى نفسه فيقول : لقد نظرت إلى نار قد أوقدتها هند بهذه البقعة فتنورتها على بعد ما بينى وبينها ، لأصلاها ولكن عاقتنى العوائق من الحروب وغيرها ، فالحروب عائق حال دون الاستمتاع بالقرب من أسماء (المرأة) أو السلام ، وفرق هناك عظيم بين نار الحرب ونار أوقدتها (أسماء) أو (هند) ، وعندما غابت عن تلك المواضع ذهب العقل أى حل التهور والطيش والجنون فكانت الحروب الطاحنة .

فالمرأة هنا أضحت " رمزًا لحادثة سياسية يشير إليها الشاعر ولا يفصح وصورة تعبيرية لها مضمون آخر غير مضمونها الظاهر " [1] ولعلنا نلمس هذا الملمح في موضعه من هذا البحث إن شاء الله ٠ فعد عن هذا وتعالى نكمل الإشارة إلى تلك المقدمة التى وردت في معلقة (الحارث ابن حلزة) حيث نلمس صلاتها الوثقى بمحور القصيدة ، وتداخلها الفنى والعاطفى والإشارى بمعناها العام وفكرتها الجوهرية ٠ واقرأ المعلقة كلها

١- الشعر الجاهلى تطوره وخصائصه الفنية ص ١٢ .

على ضوء هذه الإشارة فإنك - لا ريب- لامس فيها هذا التداخل والتشابك مما يدفعك إلى القول بأن المقدمة لا تنفصل عن عصب القصيدة بل هى مشدودة بخيوط متينة إلى وسطها ونهايتها .

وتدور في تلك هذه الرؤية ما ورد من مقدمات لقصائد أخرى لسنا في حاجة إلى التعويل عليها كلها فحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

وتبقى هناك قصائد أخرى وردت دون مقدمات ويمكن إرجاع ذلك كما أشار د/عطوان إلى الموقف حيث " إن القصائد كانت من بنات الساعة ".

أو " إلى ضياع المقدمات من تلك القصائد الطويلة ونحن مطمئنون إلى ذلك بعض الاطمئنان وخاصة بعد أن وجدنا شاهدًا على ما نقول هو قصيدة للنابغة الذبيانى رواها الأصمعى على أنها تبدأ بقوله :

لقد نهيت بنى ذبيان عن أقر وعن تربعهم في كل أصفار

دون أن يثبت مقدمه لها ، بينما روى أبو الخطاب القرشى القصيدة كاملة : مقدمتها وموضوعها الأساسى ... ومعنى ذلك أن كثيرًا من القصائد سقطت مقدماتها وليس في ذلك شك ، فكثيرًا من الشعر الجاهلى ضاع في أثناء رحلته من الجاهلية إلى عصر التدوين . [1]

ومهما يكن من شيء فإن ما ورد من القصائد التى لها مقدمات طللية يكفى في التعويل عليها في الحكم بأنها ظاهرة فنية شائعة في الشعر الجاهلى تكشف عن ملمح نفسى عام وهمّ مؤرق يحكم الإطار الذى تتحرك فيه قرائح الشعراء . ولم تكن هذه المقدمة تنفصل أيضًا عن لمس العنصر الثاني من عناصر التوحد الفنى وهو " المرأة " .

٢- المرأة:-

إن المرأة تكاد تكون محورًا عامًا في القصيدة الجاهلية ينطلق الشاعر من خلالها إلى ما يريد تلمّسه من معان وأفكار وأحاسيس ، وهى إما أن تكون حبيبة قطعت حبال

١- مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى ص١٠٩ .

obeikandl.com

الوصل ، أو زوجة خانت العهد ، أو زوجة عاتبة ولهذا الحضور المتوهج للمرأة في القصيدة الجاهلية دلالة في الأداء جعلت واحدًا من نقاد القرن الثالث الهجرى هو ابن قتيبة ت ٢٧٦ ينظر إلى المرأة على إنها معلم فنى من بناء القصيدة حيث يقول : " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببًا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه لأن التشييب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء " [١] .

وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان في القراءة الأولية للنص٠لكن هل كل الشعراء الذين جعلوا المرأة من محاور القصيدة في الجاهلية كانوا يقفون عند هذا الحد من التعبير ؟ أو يقفون على هذا القصد وحده ؟ وأن الأمر كما أشار إليه المتنبى في قوله :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعرًا متيَّمُ [٢]

فالأمر إذن أبعد مما قد يطفو على سطح القصيدة من إشارات قريبة ومعان دانية إذ أن الحدين عن المرأة شغل حيزًا كبيرًا من هذا الشعر حتى إنه إذا " أردنا أن نضع له تقديرًا وجدناه يقارب أو يعادل في حجمه وكثرته جميع الأشعار التى قالها شعراء هذا العصر في الموضوعات الأخرى من مدح وهجاء ووصف " بل إنه " كان كذلك أحد عناصر القصيدة العربية والعنصر الذى يمثل المقدمة الأولى فيها " [٣] .

وإذا نظرنا إلى المعلقات السبع - النماذج - لمسنا هذا واضحًا في المعلقة وإن كانت هناك اختلافات في بعض الرؤى التعبيرية إلاّ أن الارتكاز على عنصر المرأة واحد عند

١- الشعر والشعراء ص ٢٩ .
٢- معجز أحمد ١٤٩/٣ ـ ت د/ عبد المجيد دياب دار المعارف ط .
٣- الشعر الجاهلى تطوره وخصائصه الفنية ص ٩٥ ، ٩٦ .

openkandil.com

جميع شعراء المعلقات وغيرهم أيضًا مما جعل المرء في منوحة من القول بأن المرأة كانت رمزًا لشيء آخر تنطوى عليه جوانح الشعراء كل على شاكلته ، ويدفع الباحث إلى هذا التصور أمور أخرى :

١- أن لغة الشعر لغة لامسة ، شفافة ، وليست تقريرية ، فالشاعر لا يفصح عن غرضه هكذا في صريح من القول وإنما يلمس الأشياء لمسًا خفيفًا مبطنًا وهذا يكسبه حيوية في التعبير ، وحرية في الأداء ، وقدرة على دفع السامع أو القارئ إلى الاشتباك معه في حلبة (الدال والمدلول) أو المنطوق والمفهوم - كما يحرض السامع أيضًا على المتابعة - أما الأسلوب المباشر فهو أشبه بالخطبة أو التقرير الذى لا يكلف السامع أكثر من معرفة ما تريده العبارة في وضوح بخلاف الشعر .

٢- أن النظر في خريطة الشعر الجاهلى يعطى انطباعًا بأنه كان يشبه المستحيل أن تكون (المرأة) في هذا العصر هى الشغل الشاغل للشاعر (الإنسان) العربى في هذه المنطقة من العلم آنذاك التى كان يشعر فيها الإنسان بالحيرة والتخبط ، والقلق ، والاضطراب ، على مختلف المستويات : السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية .

٣- أن اللغة التعبيرية في هذا العصر كانت تكنى عن (المرأة) الحقيقية التى يتغياها الشاعر غرضًا أساسيًا في النص ٠ بمعنى إذا كان الشاعر يقصد امرأة معينة في قصيدته رمز إليها بشيء آخر في الوقت الذى يتخذ فيه (المرأة) رمزًا لغرض آخر يقصده ، فقد ورد أن العرب كانت تُكنى عن المرأة بالنعجة ، والشاة والقلوص والسرحة ، والحرث ، والفراش ، والعتبة ، والقارورة ، والقوصرة ، والنعل والغل ، والقيد ، والظل ، والجارة ، وبكلها جاءت الأخبار ونطقت الأشعار ٠[1] والأمثلة عديدة لهذه الرموز والكنايات التى استخدمها العرب بشأن المرأة فمثلاً الكناية بالشاه كما قال عنترة :

١- انظر : النهاية في التعرض والكتابة لأبى منصور الثعالبى ص ٣ طبع دار الندوة .

يـا شـاة مـا قـنص لمـن حلـت لـه حرمـت علـى وليتهـا لـم تحـرم

وأما الكتابة بالقلوص فكما كتب رجل إلى عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- يوصيه بنسائه :

ألا أبلـغ أبـا حفـصٍ رسـولاً فـذلك مـن أخـى ثقـة إزارى

قلائصـنا هـداك الله إنـا شـغلنا عـنكم زمـن الحصـار

وأما الحرث فمنه قول الشاعر :

إذا أكـل الجـراد حـروث قـوم فحرثـى همـه أكـل الجـراد

يعنى بحرثه امرأته ، وفي القرآن الكريم ﴿.... نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ....﴾[من سورة البقرة آية:٢٢٣] وأما الفراش فقال : - الله تعالى- في وصف الجنة ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة:٣٤] يعنى النساء ، ألا تراه يقول على إثرها : ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٣٥:٣٦] [1] .

وربما يعضد ما ذهبنا إليه أيضًا ما ورد عن الشعراء المتصوفة الذين كانوا يجعلون المرأة رمزًا للحب الإلهى .

وفي ظنى أن هذا لم يكن ابتكارًا منهم في الأداء ، وإنما هو أمر اصطلح عليه الشعراء قديمًا ٠ ولأبن الفارض في هذا الصدد باع فارع ، ومن الشعراء المحدثين الشاعر السودانى (عبدالمحمود نور الدائم) حيث يقول في إحدى قصائده :

نمـت أحـوالهم فـي حـب ليلـى لغيرهـا لـم يكونـوا راغبينـا

وتمـت نعمـة المـولى علـيهم بهـا رقصـوا وغنـوا ذاهلينـا

١- النهاية في التعريض والكتابة ص ٤٠٣.

openkandil.com

ففي هذه الأبيات نلاحظ ربطه بين أثر حبه لليلى المرموز بها والكأس الخمرى الذى أضاء أحشاء الشاربين وهى تسكرهم . [1]

فعظمة الفن الأدبى إنما تكمن " في قابليته للتأويلات الكثيرة ، فهى كالكنوز التى كلما جمعت طبقة منها تكشفت وراءها طبقة أخرى ... فها هنا تتعدد الأبعاد وتكثر اتجاهات الرؤية حتى ليصبح من الجائز أن نقول عنها أن لها ظاهرًا كما أن لها باطنًا وراء ذلك الظاهر " [2] .

ومهما يكن من شيء فلعلى أخلص من هذا إلى أن المرأة في القصيدة الجاهلية القديمة كانت رمزًا لشيء آخر وتواضع الشعراء على ذلك ، يلمح إلى أنه كانت هناك هموم عامة تشغل باله وتستحوذ على حسهم وشعورهم وهو إحساس جمعى لم يكن فرديًا كما يشير إلى ذلك هذا التواضع العام من الشعراء ، ولعلى هنا أكتفى بمثال واحد من رائية مشهورة لامرئ القيس والتى يقول في مطلعها :

سما لك شوق بعد ما كان اقصرا وحلت سليمى بطن قو فعرعرا [3]

فكانت هناك سليمى وكذلك (أسماء):

أأسماء أمسى ودها قد تغيّرا سنبدل إن أبدلت بالود آخرا [4]

وأم هاشم والبسباسة :-

له الويل إن أمسى ولا أم هاشم قريب ولا البسباسة ابنة يشكرا [5]

ولعل الصورة الشعرية التى اختلطت أبعادها في القصيدة عند تصوير الشاعر للظعائن لعلها تساعدنا على هذا التصور ، وتلك الرؤية في أن المرأة هنا في القصيدة إنما كانت ذلك الأمل الذى يسعى الشاعر وراءه راكضًا ، فالشاعر عندما كان يرى

١- انظر الأدب الصوفى في السودان د/الطاهر محمد على البشير - دار الفكر ط ١٩٧ ص ١٤٠ ، ١٤١ وهو رسالة ماجستير منشورة .
٢- أفكار ومواقف د / ذكى نجيب محمود - ط ١٩٨٣ دار الشروق ص ١٧٩ - ١٨٠ .
٣- ديوانه ص ٥٦ .
٤- نفسه ص ٦١.
٥- نفسه ص ٦٨ .

الظعن بعينيه وكان الأمل قريبًا منه شبه الظعائن بحدائق دوم ، أو السفين المقيّر بالقار ، أو المقرعات من النخيل حيث أطال في وصف المكرعات من دون غيرها ! إذ يقول :

فشـيهتهم فـي الآل لمـا تكمشـوا ... حـدائق دوم أو سـفين مقيّـرا
أو المكرعـات مـن نخيـل ابـن يـامن ... دوين الصفا اللاتى يلين المشقرا
سـوامق جبـار أثبـث فروعـه ... وعـالين قنوانـا مـن البسـر أحمـرا
حمتـه بنـو الربـداء مـن آل يـامن ... بأسـيافهم حتـى أقـرو أوقـرا[1]

وإذا كان الشاعر قد أطال في وصف النخيل هنا - وهذا أمر له دلالته في الرؤية التعبيرية- فالنخل معروف بمنافعه العديدة ، لكن عندما حل اليأس محل الأمل في قلب الشاعر وأيقن أن الدهر قد سعى بينه وبين الظعائن / الآمال لم يكن أمامه غير هذه الصورة التشبيهية التى عكست مكنون حسه ، وأرق صدؤه واضطراب عاطفته حيث قال :

ولـم ينسـنى مـا قـد لقيـت ظعائنًـا ... وخمْـلاً لهـا كـالقر يومًـا مخـدَّرا
كأثـل مـن الأعـراض مـن دون بيشـة ... ودون الغمير عامـدات لغضـورا[2]

والأثل معروف بأنه لا يدانى النخل في نفعه وإن شئت دليلاً على هذا فاقرأ قول الله - تعالى- عن أهل سبأ :

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾

[سبأ:١٥ :١٧][3] .

١-الديوان ص ٥٧ ٠ الآل : السراب ٠ تكمشوا : أسرعوا ٠ الدوم : شجر يطول باليمن ٠ السفين المقير : المطلى بالقار . المكرعات : النخيل ٠ المفروسات فى الماء ٠ الصفا والمشقر : قصران ٠ سوامق : مرتفعات ٠ الأثيث : الغزير ٠ أقر : نضج ٠ أوقرا : حمل .
٢- نفسه ص ٦٢ .
٣-سورة سبأ آيات ١٥ : ١٧ .

فالجنتان كانتا عامرتين بالزروع والثمار النافعة الطيبة غير أن أهل سبأ لما أعرضوا عن شكر الله بدلهم جنتين غيرهما احتوتا على زروع أخرى عديمة النفع ، بل فيهما وذكر من ذلك (الأثل) ، لا أحسب أن امرأ القيس كان يجهل هذه الدلالة في التصوير عندما أشار في الصورة الأولى إلى النخيل وأطال في وصفها وأشار في الصورة الثانية إلى الأثل .

ومهما يكن من شيء فالمرأة في القصيدة كانت من محاور البناء الفنى فيها وشيوع هذا المحور مع غيره من المحاور يعكس الهمّ الواحد والقلق الواحد أو الشعور الجمعى في القصيدة الجاهلية قبل إشراق نور الإسلام ، وقد يعضد ما ذهبنا إليه هنا أيضًا أن حديث الشاعر عن الناقة يأتى عقب إشارته إلى المرأة والموقف منها حيث الهم والغم .

****

٢- الناقة ودلالتها التعبيرية:-

لا تكاد تخلو قصيدة جاهلية من الإشارة إلى الناقة حتى غدت معلمًا من معالم بناء القصيدة الجاهلية ، بل عدّها د/ كاظم الظواهرى مفتاحًا من مفاتيح القصيدة [١] ورآها د/ سعيد دعبيس : رمزًا لاستمرار الحياة وعزيمة الكفاح[٢] .

وقد سبقت إلماحة إلى هذه المدلولات في الحديث عن القلق والهموم أرانى غير مضطر إلى إعادتها هنا غير مأخوذ في هذا الصدد بالشارة إلى أن الناقة أضحت حديثًا عامًا بين الشعراء وتواضعوا عليه ، وما الناقة إلاّ ذلك الحيوان الأعجم الذى خالط الإنسان العربى في حله وترحاله ، وعاش معه أيام سعده وشقائه وقلقه وطمأنينته ٠ ولعل هذا يرد مقولة البعض إلى أن الشعر الجاهلى لم يكن يتناول أمور الحياة اليومية ، وأن الشاعر كان يعيش في قالب جامد وصومعة من الحرفية الفنية التى عزل نفسه فيها عن حركة المجتمع المراد وانغمس في موضوعات تدور في فلك لا يمس جوهر الحياة من حوله [٣] .

١- مفتاح القصيدة العربية ص١٠٧ وما بعدها ط١٤١٥هـ .
٢- قراءة متعاطفة مع الشعر الجاهلى ص ١٢٢ .
٣- انظر مجلة المصور العدد ٣٠/٣٦٧٧شوال سنة ١٤١٥هـ ص٤٨ ـ مقال بعنوان (شاعر يشكو)- رجاء النقاش.

فالناقة بوجودها الطاغى في القصيدة أثارت جدلاً كثيرًا حول دلالتها التعبيرية حتى قرر د ٠كاظم : " أن الشاعر العربى قد اهتدى إلى الناقة لتكون معادلاً موضوعيًا للمرأة يسقط فيه كل ما يحب أو يصفها به بلا حرج ودون أدنى تردد " [١] .

وقد لمست في كثير من النماذج التى وقعت عليها أن الناقة تأتى في القصيدة لتسلية الهم وتسرية عن النفس المكروبة ، والقلب المحزون من مثل ذلك قول امرئ القيس :

ظللت ردائى فوق رأسى قاعدًا ... أعد الحصى ما تنقضى عبراتى
أعنّى على التهمام والذكرات ... يبتن على ذى الهم معتكرات
بليل التمام أو وصلن بمثله ... مقايسة أيامها نكرات
كأنى ورِدٍ في والقراب ونمرقى ... على ظهر عير وارد الخبرات
أرن على حقب حِيال طروقه ... كذود الأجير الأربع الأشرات [٢]

ولأن الشاعر هنا يستعين بها الشاعر (الإنسان) على مجاوزة همومه وقلقه فهو يسبغ عليها ألوان النشاط والقوة والجلد ، فتارة يصفها وصفًا مباشرًا ، وتارة يتصورها حمارًا وحشيًا يقوده ذلك إلى وصف الطرد ، ونلمس هنا الناقة حمارًا وحشيًا :

كأنى ورِدٍ في والقراب ونمرقى ... على ظهر عير وارد الخبرات

والخبرات جمع خبر وهو قاع يحبس الماء وينبت السِّدد ٠ والناقة جسرة ذمول ، بعيدة بين المنكبين كأنها تجرى عند مجرى الضفر هرًا مشجرًا ، وهى أدماء حرجوج ، وذات لوث ، سهوة المشى ، مذعان ، مجدّة ، روعاء الفؤاد ، ويشكرها الشاعر على هذه السرعة ، يقول امرؤ القيس :

١-مفتاح القصيدة العربية ص١٠٨ .

٢- ديوانه ص ٧٨ - ٧٩ [التهمام : الهموم / الذكرات : ما تتذكره من أحبتة فيهيج حزنه / معتكرات: دائمات / مقايسة : قيست أيام همومى بلياليها فى الشدة والانكار وهو كقوله وما الاصباح منك بأمثل / القراب : عمد السيف / النمرق : الوسادة / عير : يشبه الناقة بالحمار الوحشى / الحقب: الأتن / حبال لم تحمل / طروقة : التى يحملها الفحل / ذود الأخير من الإبل من الثلاث إلى العشر] .

obeikandl.com

فجزيت خير جزاء ناقة واحد ورجعت سالمة القرا بسلام [1]

والناقة نراها عند (بَشَامةُ بن عمرو) عيرانة ، عذافرة ، عنتريسًا ، ذمولاً ، مداخلق الخلق ، مضبورة :

فقربت للرحل عيرانة عذلفرة عنتريسًا ذمولاً
مداخلة الخلق مضبورة إذا أخذ الخافقات المقيلا [2]

وعيرانة أى تشبه العير ، واعذافرة الشديدة الضخمة ، وكذلك العنتريس والذمول السريعة ، ومداخلة الخلق أى محكمة البنية ومضبورة : مجموع بعض خلقها إلى بعض ، فليست فيها نتوءات خلقية وإنما هى استواء في خلقها ثم نراها أيضًا عند (المسيّب بن علس) : خميصة سرح اليدين، وساعًا ، وصكاء تشبه النعامة ، وذِعْلِبةَ سريعة ، وحرجًا جسيمة طويلة على وجه الأرض هلواعًا مستخفة كأنها تفزع من النشاط .

يقول (المسيب) :

فتسل حاجتها إذا هى أعرضت بخميصة سُرح اليدين وَسَاعِ
صكًا ذعبلة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هِلْوَاعِ [3]

وهى عند (عبيد بن أبى الأبرص) جلالة ، وجناء كالأجم المطين ، والجلالة الناقة الضخمة ، والوجناء : العظيمة الوجنات ، ولوس: سريعة :

أفلا نناسى حبها بجلالة وجناء كالأجم المطين ولُوسِى [4]

وتارة يراها حمارًا وحشيًا :

كأن قتودى فوق حأب مطرَّد رأى عانة تهوى فولى مواشكًا [5]

١- نفسه ١١٦ ، والقرا : الظهر .
٢- المفضليات ص ٥٦ .
٣- المفضليات ص ٦١ .
٤- نفسه ص ٧٧ .
٥- نفسه ص ١٠١ (والعانة : القطيع من حمر الوحش) .

والناقة عند النابغة الذبياني " عوجاء " قد اعوجت لطول السفر وانحرفت عن حالها إلى الهزال :

فلابد من عوجاء تهوى براكب إلى ابن الجلاح سيرها الليل قاصد [1]

وهى ناجية عنده أيضًا :

وناجية عديتُ في متن لا حب كحل اليماني قاصد للمناهل [2]

وكذلك هى روحة ، عِرْمس موثقة الأنساء ، مضبورة القرا / الظهر ، نعوب وأيضًا عدافرة ، صموت مذكرة ، ولا أحسب بعد ذلك أن أوصاف الناقة تخرج عن هذا الإطار والنموذج في القصيدة العربية القديمة ، وكلها أوصاف أسبغها الشاعر على الناقة من عنده أو هو تخيلها فخالها وذلك لحاجة في نفسه .

وتشابه صفاتها عند الشعراء لا يعنى أنها فكرة واحدة بل جملة أفكار " أى أن الشعر ليس فيه تكرار حقيقى بالمعنى الحرفى في كثير من الأحيان لأن الإطار العام يتغير ... " [3] .

هذا وقد كانت فكرة الناقة من " أكثر الأفكار تعقيدًا في الشعر الجاهلى وأكثرها حاجة إلى التمحيص " إذ هى " ... خالقة الأساطير التى أخرجت الشعر من الغناء الساذج إلى التصدى المُلحّ لفكرة المشكلات ، أو لِنَقُل أن الناقة هى التى نقلت الفكر العربى قبل الإسلام مما نسميه طبيعة الدراما والصراع ، فالعلاقات الأساسية بين الشاعر والعالم في شكل مزاج من الرفض والقبول تكمن في هذه الناقة ..." [4] . ومهما يكن من شيء فالناقة محور من محاور القصيدة الجاهلية ، ولم يكن هذا استجابة لنظرية نقدية محضة وإنما هو استجابة لدواعى الحياة وأبعادها المتشابكة ومن ثم وجدنا الحديث عن الناقة يقترن بالهموم الثقال وهى تأتى في ذلك على النقيض من الفرس فبينما " بدا الفرس أحيانًا فرحًا مختالاً فخورًا

١-ديوانه ص ١٤٠ .
٢-ديوانه ص ١٤٢ .
٣- قراءة ثانية لشعرنا القديم ص١٠١ .
٤- نفسه ص ١٠٣ ، ١١٥ .

obeikandl.com

بالنصر بدت الناقة مهمومة مثقلة بالإعياء ، حتى في لحظات النصر التى يتخيلها الشاعر شاعرة بتكاليف فكرة الاتصال ومشقتها ، والاتصال الروحى فيما نعرف هو مشكلة العربى " [1] .

هذا وإن كان الشاعر لا يود الإيغال في هذه التفاسير والتآويل الميهمة إلاّ أن طبيعة هذا الشعر الذى تتردد فيه أصداء الحياة بقوة يغرى بهذا اللون من التفسير والتآويل ، وتواتر الإشارة إلى الناقة فيه بهذه الصورة يرفد هذا التأويل بكثير من الأبعاد التى تكمل الصورة بها من خلال القراءة الممعنة ، وهذا يضاعف من المسئولية الملقاة على عاتق دارس الشعر الجاهلى تدفعهم إلى شحذ الأداة من ناحية ، واستيعاب قضية الإنسان العربى قبل الإسلام من ناحية أخرى .

سفما كان هذا الشعر إلاّ صدى نفوس أرقها البحث عن مرفأ الأمان في هذا العالم الصاخب بصمته الثقيل إن كان للصمت صخب .

يقول الدكتور / طه حسين : " فليس شاعرى حين يصف ناقته مثقلاً ولا مملاً وإن كان مطيلاً مكثرًا ، فناقته في حقيقة الأمر لا تعنيه إلاّ لأنها تستطيع أن تسليه عن هجر الهاجر وأن تمضى به إلى حيث لا يطلب " "... يخيل إلىّ أنه إنما اتخذ ناقته تعلة ليتغنى ببعض المناظر الجميلة التى كانت تشيع في الصحراء " [2] .

بل إن الأمر في هذا أبعد مما يقال ويتصور في الدراسات المسطحة للنص الجاهلى ، فلغة الشعر لغة ثرية مدرار والشاعر كان يهيم في أودية تُربك العقل ، وترهق الحس القريب وتُدخل النفوس في متاهات ، الأمر الذى رأينا القرآن يقرع هذا النمط من الشعراء " .. ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون " فالشاعر " لا يسيطر على عملية الإبداع حتى في هذا النوع الذى يبدو عليه مظهر الإرادة ، بل يشعر الشاعر في معظم اللحظات أن المعانى حينما تجول برأسه هى التى تبحث عن ألفاظها اللائقة بها ، وأن قدرة خفية هى التى تملى عليه ،

١- قراءة ثانية لشعرنا القديم ص١١ .
٢- حديث الأربعاء ٢٣/١ .

أو أن الخواطر لها قدرة على جلب بعضها بعضًا " [1]. فالناقة لا شك كانت تحتل مكانة خطيرة في نفوس العرب والشعراء ، ومن ثم تأتى الدلالة بها في التعبير الشعرى أبعد من الإشارة السطحية التى نلمسها بداهة في أثناء القراءة القريبة .

ولا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى كبير جهد لإدراك ما تخفيه الإشارات إلى الناقة ، فلغة الشعر تُفهم في إطار يختلف عن إطار لغة النثر ومن ثم يحسن التأويل في الشعر ، ولا يحسن في النثر ، وتتعدد الأذواق والفهوم في لغة الشعر في حين ينبغى ألاّ تكون كذلك في لغة النثر .

وتجدر الإشارة إلى أن حديث الناقة يرتبط إلى حد كبير في القصيدة بالحالة النفسية المكروبة للشاعر ، فهناك علاقة بين تسلية الهم ومحاولة الانسلاخ منه وبين الإشارة إلى الناقة، في حين تكون الإشارة إلى الخيل في مقام المفاخرة والمكاثرة .

ومن ثم رأينا شاعرًا مثل (مالك بن حريم الهمدانى) يستعلى على آثار إنصراف المحبوبة عنه ، ولا يستسلم لهمّه وحزنه ، ومن ثم نراه لا يقترب من ذكر الناقة في قصيدته التى يقول فيها :

جزعت ولم تجزع من الشيب مجزعًا
وقد فات ربعيُّ الشباب فَوَدَّعا
ولاح بياض في سواد كأنه
صُوار بحوٍ كان جديًا فأمرعا
وأقبل إخوان الصفاء فأوضعوا
إلى كل احوى في المقامة أقرعا
تذكرت سلمى والركاب كأنها
قطا وارد بين اللفاظ ولعلعا

١- حيرة الأدب في عصر العلم ـ عثمان نويّه ص٩٨ ـ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر،القاهرة ١٣٨٩/١٩٦٩م.

فحـــــدثت نفســـــى أنهـــــا أو خيالهـــــا
أتانـــا عشـــاءً حـــين قمنـــا لنهجعـــا
فقلـــت لهـــا بيتـــى لـــدينا وعرســـى
ومـــا طرقـــت بعـــد الرمـــاد لتنفعـــا
أهـــيم بهـــا لـــم أقضـــى منهـــا لبانـــة
وكنـت بهـا فـي سـالف الـدهر مُوزَعـا
وإنـــى لأســـتحى مـــن المشـــى أبتغـــى
إلـى غيـر ذى المجـد المؤثـل مطمعـا[1]

فالشاعر يعصره الأسى والحزن على ما بدا من الشيب وانصراف الأحباب وعدم قضاء حاجته من محبوبته ، بمعنى بعدها عنه كل ذلك لم يحوجه إلى ناقته يسرِّى بها همّه على نحو ما ألفنا من كثير من الشعراء " فدع ذا وسل الهمّ بجسرة ، أو بذات حرف ، أو بدوسرة " وإنما رأينا الشاعر ينصرف إلى الحديث عن المجد المؤثل الذى لا ينبغى سواه ، ثم حديثه عن كرمه وشجاعته ووفائه إلى غير ذلك ثم لمس الخيل (الخيل) :

وتهـدى بـى الخيـلَ المغيـرة نَهْـدَةً إذا ضـبرت صـابت قوائمهـا معًـا[2]

فله فرس سريعة نشيطة تتقدم الخيل ثم شرع في تفصيل صفاتها ، غير أن هذا لا ينفى كون الناقة ظاهرة عامة في القصيدة الجاهلية استقرت في ضمير الشعراء ، بل في ضمير المجتمع كله ، إما حقيقة من حقائقه ، أو رمزًا من رموزه التى يتدرع بها ، وهذا في كلتا حالتيه يعكس توحدًا فنيًا وهمًّا جماعيًا عاشه العرب في الجاهلية قبل الإسلام .

****

١-الأصمعيات ص٦٢ ، ٦٣ [صوار : قطيع من البقر/ أمرع : خصيب / أوضعوا : أسرعوا / الأحوى : الأسود / الأفرع : التام الشعر / اللفاظ : ماء لبنى إياد / الموزع : المغرى] .
٢-الأصمعيات ص٦٦ [تهدى الخيل : تتقدمها / نهدة : مرتفعة الخلق / ضبرت : جمعت قوائمها وثبتت / صابت وقعت معًا] .

٤- الأوزان والقوافى الشائعة (الإيقاع) :-

في القصيدة الجاهلية شاعت بحور شعرية معينة واستقرت فيها عواطف الشعراء وجرت على قوافيها أحاسيسهم ، وحسبك أن تمسك بديوان من دواوين الشعراء الجاهليين أو بمجموعة شعرية من المفضليات أو الأصمعيات أو المعلقات لتجد أن بحرًا معينًا هو السائد الشائع ويليه بحر آخر ، فالطويل ثم الكامل كانت لهما السيادة ، ثم تأتى بقية البحور بنسب متفاوتة(الوافر ، البسيط ، الخفيف ، المتقارب ، السريع ، الرمل ، المنسرح) والموسيقى معلم من معالم بناء القصيدة ، إذ هى في الشعر "تصبح عنصرًا حاسمًا في تشكيل البنية اللغوية ، لأن البنية الفنية للغة القصيدة تخضع للإيقاع ، وهى مقابل هذا الخضوع تحصل على الاحتفاظ بلذة المعاودة كلما أُعيدت قراءة القصيدة " [١] .

وإذا كانت الموسيقى هى: " علم هندسة الأصوات والحروف والألوان وفن هندسة العواطف بالأصوات والحروف والخطوط والألوان " [٢] فإن الخطوط العامة للأصوات الموسيقية في النص الجاهلى تأتى متناغمة مع واقع الشعور العام الذى استكمن في النفس العربية ، ولم تكن هذه البحور الشعرية التى جاءت عواطف الشعراء منسوجة على نولها لم تكن إلاّ استجابة طبيعية لهذه الروح السارية في عمق الإنسان العربى ، والتى ظهرت جلية في الوزن والقافية ، ومجموعة الألفاظ المنتقاة والصور التعبيرية المتنوعة والتى حملت سمات هذه الحياة قال بعض الفلاسفة : "إن للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها"[٣].

وما الوزن . كما سلف . إلاّ هندسة في الأصوات والحروف والكلمات حيث يقوم الشاعر بتأليفها ، أو هى تتألف هكذا مستجيبة لصدى الشعور ودرجة اهتزازه وطريقتها ، كل هذا لعله يعطى دلالة تشير إلى نوع من التوحد الفنى للإيقاع الجمعى والشعورى كما بدا من دلالة الناقة ، والمرأة والأطلال ، بل لعله يكون في الوزن أشد وضوحًا وجلاءً من غيره .

١-آفاق شعرية - محمد إبراهيم أبوسنة ص ٤٠ المكتبة الثقافية رقم ٥٠٧ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م .

٢-هجمة علمانية جديدة ومحاكمة النص القرآنى ص٩٠ كامل سعفان - دار الفضيلة .

٣-انظر : عيار الشعر - ابن طباطبا العلوى - ص٢٢ .

وتعدد البحور إنما يعكس تعددًا في الأمزجة النفسية التى تعالج عاطفتها على نحو يتبعه تعدد في الصور التعبيرية ، هذه واحدة ، والثانية أن بحرًا معينًا يحتل مرتبة متقدمة .

أو تأتى النسبة الغالبة له دون غيره أمر له دلالة نفسية أيضًا ويعطى تصورًا عامًا لشعور عام جمعى ، فالنمط الغالب هو ما جاء على نسقه وما عداه يأتى حالات استثنائية أو يكون على درجة أخرى من الوعى الجمعى .

فلو نظرنا في المعلقات مثلاً وجدنا بحر (الطويل) بإيقاعه المتميز يحتل المرتبة الأولى .

١- معلقة امرئ القيس : من الطويل .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

٢- معلقة طرفة بن العبد : من الطويل .

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

٣- معلقة زهير : من الطويل .

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدرّاج فالمتثلّم

٤- ثم تاتى معلقة(لبيد)من الكامل .

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها

٥- ومعلقة عنترة أيضًا من الكامل .

٦- ومعلقة " عمرو بن كلثوم " من الوافر .

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

٧- ومعلقة الحارث بن حلزة من الخفيف .

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

فالسبع المشهورات تأتى ثلاث منها على نسق " الطويل " بما يعادل ٤٨٪ تقريبًا ، وتأتى اثنتان منها على نسق " الكامل " بما يعادل ٢٨٪ تقريبًا ، وتأتى واحدة منها على

openkanal.com

نسق " الوافر " ، وأخرى على نسق الخفيف ، وكل منها بما يعادل ١٢٪ تقريبًا ، وكلتاهما ٢٤٪ تقريبًا .

ولا يفوتنا أن نشير إلى رويِّ المعلقات ، فاليم جاءت في المقدمة٠ثلاث معلقات : معلقة زهير ، ومعلقة لبيد ، ومعلقة عنترة ، ثم تأتى حروف اللام ، والنون ، والدال ، والهمزة كل حرف منها في معلقة واحدة ، وهذا التنوع الوزنى له أغراضه وعلله ، كما إن أنفاق البحر فى شيوعه وتقدمه له علته يقول د/ الطيب : " ٠٠٠ لو تأمل الناقد ودقق وتعمق !!! فاختلاف أوزان البحر نفسه معناه أن أغراضاً مختلفة دعت إلى ذلك وإلاّ فقد كان أغنى بحر واحد ، ووزن واحد ، وهل يتصور في المعقول أن يصلح بحر الطويل الأول للشعر المعبر عن الرقص والنقزان والخفة ؟ أو أن يظن من الممكن أن تُصاغ كلمة الأخطل :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا وأعجلتهم نوى في صرفها غير

في بحر الرجز المجزوء والمخبون الذى منه قول شوقى :

فيما اجتماعنا هنا يا عضر فوت ما الخبر [1]

وتأسيسًا على ذلك فالقراءة الإحصائية للوزن الشعرى ودرجة شيوعه : بعضه دون بعض ، وكذلك حروف القوافى ، كل ذلك لا يأتى عفوًا ولا تدفعه العشوائية ، وإنما الأمر تحكمه دواع نفسية وحياتية وشعورية وثقافية وفكرية ، أو بمعنى أشمل تحكمه حضارة ذات خطوط وألوان ، فالوزن السارى في القصيدة الجاهلية على نمطه المألوف يتم عن سلامة في فطرة الشاعر التعبيرية التى اتسقت مع معطيات الحياة وأنماطها ، كما يتم عن انسجام مع هذا الكون وظواهره والتفاعل مع كائناته ، ويأتى مثالاً على ذلك عصر الناقة التى تفاعل الشاعر معها ، وعاشت في ضميره ، فجاءت بواكير وزنه وموسيقى كلماته منسقة مع حركاتها ،

١-المرشد ٧٢/١ ، ٧٣ .

ويرى بعض الدارسين : " أن الوزن مأخوذ في الأصل من توقيع سير الجمال في الصحراء ، وتقطيعه يوافق وقع خطاها ويؤيد ذلك الرجز أول ما استعمله العرب لسوق الجمال وهو الحداء في أكثر أوقاته في معاشرة جمله أو ناقته .. "[1] ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على التعانق القائم بين الوزن الشعرى وظواهر الحياة ، وهذا بدوره يكشف عن ذلك التوحد الفنى الذى يوحى بالشعور الجمعى الذى حملته القصيدة الجاهلية إرهاصًا ورؤيا شعورية تمهد لهذا التغيير الشامل الذى أتت به هذه الرسالة الخاتمة .

****

١- تاريخ آداب اللغة العربية ـ جورج زيدان ج أ ص٥٥ .

obeikandl.com